شعراء الدولة الفاطمية

هم كثر، وقد رأينا أن نخصص في كتابنا هذا ما استطعنا أن نثبت مصريته. وسنقدم لك بياناً نبدوه بذكر كل من وقفنا له على تاريخ وفاة، ثم نعقب ذلك بذكر من لم نعرف لهم تاريخ وفاة مضبوط، ودلت القرائن على كونهم من شعراء مصر في أيام هذه الدولة.

وهذا هو البيان:

1- علي بن النعمان القيرواني، (374،) كان قاضي القضاة للفاطميين بمصر وشاعراً مجوداً[1].

2- الحسن بن علي بن وكيع التنّيسي، (...)، مصري، ذكر في الوفيات ج1، ص 137.

3- أحمد بن محمد الأنطاكي (أبو الرقعمق)، (- 399)، طارئ، ذكر في الوفيات، ج1، ص 4..

4- الحسن بن محمد السهواجي، (- 400)، مصري، ذكر في الوفيات، ج1 ص170.

5- صريع الدلاء، (412)، طارئ، ذكر في الوفيات، ج1، ص359.

6- ابن الضيف حيدرة بن عبد الظاهر، (- 500)، من دعاة الفاطميين، ذكر في الخريدة.

7- علي بن عماد الإسكندري، (- 525)، مدح ابن الأفضل وقتل معه لما قتله الحافظ[2].

---

(1) حسن المحاضرة ج 1ص323
(2) المرجع السابق ج 1ص 324.

8- أبو الصلت أمية، (- 528)، طارئ، ذكر في الشذرات، ج4، ص83.

9- ظافر الحداد، (- 529)، إسكندري، ذكر في الشذرات، ج4، ص91[1]

10- محمد بن علي الهاشمي(أبو الغمر)، (- 544)، إسنائي، قال في الخريدة " أشعر أهل زمانه "[2].

11- محمود بن قادوس، (- 551)، دمياطي، كاتب الإنشاء بمصر وشيخ القاضي الفاضل[3].

12- الجليس بن الحباب، (- 561)، مصري، سمي بالجليس لأنه كان يجالس صاحب مصر[4].

13- المهذب بن الزبير، (- 561)، مصري، مدح الصالح بن رزيك[5].

14- الرشيد بن الزبير، (- 563)،(أسواني) ذكر في الشذرات، ج4، ص197.

15- يوسف بن محمد (ابن خلكان)، (- 566)، مصري، صاحب ديوان الإنشاء أيام الحافظ[6].

16- نصر الله (ابن قلاقس)، (- 567)، مصري، إسكندري ذكر في الوفيات ج2 ص156.

---

(1) وكذلك في الوفيات ج1 ص 241.
(2) وذكره السيوطي في حسن المحاضرة ج1 ص324.
(3) المرجع السابق.
(4) المرجع نفسه
(5) وذكره بن خلكان في ترجمة أخيه الرشيد بن الزبير ج1 ص51.
(6) الوفيات ج2 ص 407.

17- عمارة اليمني، (- 569)، طارئ، دخل مصر مرتين في سفارة ودخلها في المرة الثانية سنة 652 فبقي بها إلى أن شنق.

18- محمد بن القاسم بن عاصم، مصري، شاعر الحاكم، ذكر في حسن المحاضرة، ج1، ص324.

19- مسعود الدولة، مقدم الشعراء أيام ابن الأفضل بن أمير الجيوش[1].

20- أبو المظفر بن أحمد المصري، كان يعيش سنة 576 ولقبه صاحب الخريدة بمصر.

21- شرف الدولة يحيى بن حسن، مدح طلائع بن رزيك. ذكره في الخريدة.

22- طلائع الآمري، كان قريباً من الأفضل، ذكره في الخريدة.

23- الناجي المصري، هجا الأفضل. ذكره في الخريدة.

24- النجيب بن وزير المصري، كان يعيش سنة 573، ولقبه صاحب الخريدة.

25- أبو العباس أحمد بن مفرج، من شعراء الحافظ، ذكره في الخريدة.

26- حسن بن زبيد أو علي بن الزيد، دس عليه هجاء الحسن بن الحافظ وسعى به فقتل.

27- علي بن محمد بن النضر، من شعراء زمن الأفضل ذكره في الخريدة

28- علي بن البرقي، من شعراء زمن الأفضل، ذكره في الخريدة.

29- عبد الله بن الطباخ، من شعراء زمن الأفضل، ذكره في الخريدة.

30- محمود بن ناصر الإسكندراني، من شعراء زمن الأفضل، ذكره في

---

(1) الخريدة.

الخريدة.

31- مروان بن عثمان اللكي، من شعراء زمن الأفضل ذكره في الخريدة

32- أبو الفتيان مفضل العسقلاني، قدم مصر، ذكره في الخريدة.

33- هبة الله بن الصياد، من شعراء طلائع بن رزيك.

34- الحسين بن الجمل الأصغر، من أهل الفسطاط من شعراء المائة الرابعة[1].

35- علي بن الحسين العقيلي، متأخر عن المائة الرابعة[2].

36- علم الملك (النحاس المصري)، كان يعيش سنة 561 ذكره في الخريدة.

37- علي بن أحمد بن الزبير، ابن الرشيد الزبير.

38- ناصر الدين بن شاور، وزير العاضد. ذكره في المغرب، ج4، ص92.

39- أبو الفتوح البيني، تجاوز المائة الرابعة، ذكره في المغرب، ج4، ص103.

40- الماهر المحجوب المصري، مصري من شعراء المائة الخامسة رحل عن مصر قال عنه الباخرزي: ما طرأ علينا أعذب منه عذبة لسان، ولا أبرع منه براعة بيان.

41- القاسم بن أحمد الرسي، هجا ابن كلس مخاطباً المعز[3].

---

(1) المغرب ج4 ص102.

(2) المرجع السابق ص 52.

(3) يتيمة الدهر ج1 ص 371.

42- أبو القاسم عبد الغفار، شاعر الحاكم، مدح الفضل بن صالح قائده[1](*).

❖❖❖

تميم بن المعز لدين الله
(337هـ/374هـ)

نحن هنا أمام شاعر من بيت الخلافة الفاطمية، فهو ليس شاعراً فاطمياً بالمعاصرة وحسب؛ ولكن (الفاطمية) تجرى فى دمائه، فهو الشاعر تميم بن الخليفة المعز لدين الله الفاطمى الذى فتحت مصر فى عهده على يد جوهر الصقلى، وهو أخو العزيز الخليفة الفاطمى.

ولقد ظلم الشاعر تميم بن المعز الفاطمى فى حياته وبعد مماته من نواح كثيرة.. فلقد كان أكبر أولاد المعز بالله وأحق إخوته عبد الله، ونزار – الذى ولى الخلافة ولقب بالعزيز- وعقيل بالخلافة الفاطمية، ولكن أباه المعز لدين الله صرفه عن ولاية العهد، وجعلها لنزار- أو العزيز- ثالث أولاده.

ولابد أن هناك أسباباً جعلت المعز يسلك هذا المسلك نحو ولده تميم، ولعله لمح فيه منذ أوائل صباه ما جعله يصرفه عن الاضطلاع بأعباء ولاية العهد والخلافة.

ويبدو أن تميماً كان منذ شبابه الباكر ضالعاً مع جماعة من الساخطين الناقمين على أبيه المعز لدين الله وحكمه. وكان من هؤلاء

---

(1) اليتيمة ج1 ص 389، والوفيات ج2 ص 336.
(*) راجع الأدب العربي في مصر لمصطفى محمود ص 222 : 225.

الناقمين جماعة من أهل البيت الفاطمى نفسه ومن أبناء عم الشاعر تميم. مما جعل الخليفة المعز يعين لهم الأستاذ (جؤذر) لرصد حركاتهم، وتعقب خطواتهم على غرة منهم. وقد كانت الرسائل والكتب تتبادل بين هؤلاء الساخطين الثائرين وبين الأمير تميم الذى لم يكن يدرك تمام الإدراك خطورة ما هو مقبل عليه من المشاركة مع الثائرين. وكانت الأخبار بموقف تميم ترد إلى أبيه المعز فلا يكاد يصدقها، ويوصى الأستاذ جؤذر بعدم التعرض لهؤلاء الثائرين لمجرد الاشتباه فيهم، إلى أن أن اضطر الخليفة المعز إلى تضييق دائرة الخناق عليهم، فكتب إلى الأستاذ جؤذر يقول له: (يا جؤذر! كنت خاطبتنا في أمر كتب القصرين إلى دار تميم وغيره، فأمرنك بترك التعرض لهم، وأذن الله قد أجرى على فكرك ما فيه التوفيق. ونحن ما نظن بأحد سوءاً من الأباعد، فكيف من الأقارب؟ وقد ظهر لنا بعض ما نكرهه. فاعمل على حمل ما يكون من كتاب وغيره إلينا، ولا تنفذه حتى تعرفنا به من حيث لا يشعر بك أحد البتة إن شاء الله"[1].

وظاهر هذا الكلام أن المعز لدين الله الفاطمي قد أدرك أن هناك حركة تدبر فى الخفاء للثورة عليه، وأن في هذه الحركة بعضاً من أهل بيته وأقاربه، وأن ولده تميماً ضالع مع المتآمرين. ولعل الساخطين أقنعوا تميماً بنصرته حتى يصل إلى الخلافة، وخاصة أنه أكبر أبناء المعز وأحقهم بالخلافة بعد أبيه..

(1) سيرة الأستاذ جؤذر، تحقيق د. محمد كامل حسين ومحمد عبد الهادى شميرة، ص 99.

ومن هنا بدأت الوساوس تنفذ إلى قلب المعز نحو ولده الأكبر تميم، وأخذ يشك في كل خطوة يخطوها، وخاصة بالمغرب قبل مجيئه إلى مصر. ومما يؤكد هذه الوساوس أن أحمد بن الحسن الكلبي أمير جزيرة صقلية من قبل الفاطميين كان له ولد أسمه (طاهر)، وكان صديقاً حميماً للأمير تميم بن المعز، وقد شك أبو طاهر في هذه الصحبة التي اعتقد أن فيها شراً يدبر، وأمراً عظيماً يبيّت، فكتب إلى الأستاذ جؤذر يطلب منه الإذن من الخليفة المعز في قتل ولده: طاهر لهذه الصحبة غير الطاهرة في نظر أمير صقلية. ولقد أعجب الخليفة المعز بموقف أبي طاهر من ولده، كما أعجب بوفائه للخلافة الفاطمية أكثر من حبه لابنه وفلذة كبده. ولكنه أمر بأن يُصرف أحمد الحسن الكلبي عن تفكيره هذا نحو ولده، وأن يُقنع بأن الفاسد قد يستصلح بدلاً من قتله، وبدلاً من الفضيحة التي لا يلحق عارها إلا أهله.

ولعل رسالة الخليفة المعز لدين الله إلى الأستاذ جؤذر تكشف لنا عن ناحية أخلاقية عظيمة من أخلاق المعز حيث يقول:

(يا جؤذر. كثر الله من أوليائنا مثل أحمد – يريد أحمد الكلبي – فوالله ما كان يشينه عندنا ويصوره بغير صورته إلا بعض أتباعه الذين زينوا لهذا الصبي الشقي ولده صحبة من كان سبب شقوته. ووالله إن توجعنا به كتوجعنا بمن لنا. لكن ابن أحمد يريد طاهراً يُرجئ فيما يستقبل من الزمان، ومدبرنا نحن – يريد ولده تميماً – لا يرجى أبداً. إذ كانت الخطة التي يرفع الله عز وجل بها أولادنا هي خطة الطهارة، ومن عدمها كان كلا على مولاه. والحمد لله على ما ساء وسر. فأما ما أراد

أن يفعله أحمد بولده – فامنعه، وتشفع له عنده، وعرفه أن الصواب إصلاح كل فاسد من غير ظاهر شنعة يلحقه عارها، ويقى ذكرها مع الأيام. فيما يخفى عليه أن ذلك يبقى فى الأعقاب. فليمسك ويعمل ما يصلح فيما يستقبله، فكونه بين أيدينا يصلح فساد كل فاسد كان يسعى به بينهما...)[1].

قد تكون ضلاعة الأمير تميم مع الساخطين على أبيه الخليفة المعز هي السبب الرئيسي لغضب والده عليه وصرفه عن ولاية العهد. ولكن لا شك أن المعز رأى بحس الوالد وعينه وفراسته التي لا تخطئ أن ابنه تميماً غير أهل لولاية العهد، ولا هو جدير بالخلافة حين تؤل إليه. ولعله لاحظ فى سلوكه وفى لون حياته وفى إيثاره حياة اللهو والمجون ما يجعله غير خليق بأن يملأ المركز الخطير الذى يشغله أبوه والذى شغله خلفاء الفاطميين من قبل. فقد كان تميم شاباً لاهياً ماجناً، وكان يأخذ من حياة اللهو بأوفى نصيب، وليست الحياة في نظره إلا خمراً وزهراً وامرأة. وأما غير ذلك من مطالب المجد، ومراقي الطموح فكان غير مشغول بها، ولا مصروف إليها. وفى شعره مصداق لهذا الخط، الذى اتخذه في الحياة، حيث يقول مرة:

قد اجتمع البستان والروض والخمرُ ∴ وحُركت الأوتار وارتفع الزمرُ

فما لك لا تعدو على الراح عدوة ∴ يبيحُك فيها كل ما تشتهي السكر

هل العيش إلا قينةٌ ومدامةٌ ∴ وساقٍ مليحٌ ليس يُعصى له أمرُ

(1) سيرة الأستاذ جوذر، ص 120.

فبادر بقايا العمر ما دمت قادراً ∴ وما جرَّ أرسان البقاء لك العمر

ويقول أخرى مسرفاً في نسيان حقوق دينه:

دَعْ مقال العَاذِلاتِ ∴ والهَ عن سَعْي السُّعاةِ

واشْرِب الرَّاحَ وشُبْها ∴ بالثَّنايا العَطِراتِ

وانتَقِلْ إن شئتَ تفًّا ∴ حَ رِياض الوَجَنات

أنا ما بين نَدَاما ∴ ي وراحي وسُقاتِي

ثَمِلٌ لا أعْرف الصَّحْ ∴ وَ ولا وقتَ الصَّلاة

وكثير هو الشعر الذى يصادفنا في ديوان تميم بن المعز والذى يعبر عن انصرافه التام عن جد الحياة إلى هزلها، وعن صحوها إلى سكرها. ومثل هذا الاتجاه لا يشجع خليفة على الوصية بولاية العهد لولده. ومن هنا صرف المعز ولده الأكبر تميماً عن ولاية العهد، وجعلها في ولده نزار (العزيز) ثالث الأولاد.

ولكى نكون دقيقين في مسألة ولاية العهد هذه يجب أن نقول إن المعز لدين الله جعلها أول الأمر لعبد الله ثاني أولاده والذى يأتي مباشرة بعد تميم المصروف. ولكن القدر شاء أن ينتزع عبد الله من أحضان والديه سنة364هـ. وهنا تطلع الأمير تميم لولاية العهد مرة أخرى. ولكن أباه المعز صرفه للمرة الثانية مع أحقيته لها بالسن. ولكن المسألة هنا ليست محل أحقية، ولكنها محل أهلية. وقد بدا من سلوك تميم ما جعله غير أهل لولاية العهد في نظر والده، فصرفها إلى نزار الذى لقب

بالعزيز، ولما تولى نزار الخلافة سنة 365 ه عقب وفاة أبيه المعز يئس تميم من التطلع إلى الخلافة، لأنها ستنتقل بعد ذلك إلى المنصور ولد العزيز الذى لقب بعد ذلك بالحاكم بأمر الله الفاطمي.

والحق أن تولى العزيز نزار للخلافة الفاطمية قد أيأس أخاه الشاعر تميماً من طلبها أو التفكير فيها، فرضى بنصيبه الذى كان هو مسئولاً عن تشكيله، وسكتت نفسه الثائرة، فلم يشترك فى فتنة، ولم يخالط ثائرين، ورضى بمقامه فى قصره الباذخ بالبستان المعروف بالمعشوق، وآثر الدعة والاسترسال فى حياة الملذات، ولم يحقد على أخيه الخليفة العزيز نزار، بل كان يمدحه، كما كان يمدح أباه من قبل، وكان العزيز يعطيه ويمنحه ويزيد فى بره، والشاعر يزيد فى مدائحه وإخلاصه له.

ويروى لنا ابن الأبار أن الخليفة العزيز تنزه إلى بركة الحبش، فلما قرب من قصور أخيه تميم سأل عنه، فأسرع إليه من عرفه، فخرج راجلاً حافياً حتى لقيه فسلم على أخيه العزيز بالخلافة، وقال: يا أمير المؤمنين! قد وجبت على عبدك الضيافة، قال: نعم. ودخل معه إلى بستانه، وقد أمر بجنيبة من الجنائب التي كانت بين يديه وأقسم على تميم أن يركبها ويسايره، فلما توسط البستان نظر إلى ثمر يلوح الذهب عليه، فتعجب واستظرفه، ودنا من شجرة، فأخذ منها ليمونة، وإذا مكتوب عليها بالذهب:

أنا الليمون قد غذيت عروقي ∴ ببرد الماء في حرز حريز

فجعلها في كمه وقال: هذه ضيافتي عندك! وانصرف إلى

قصره، فبعث إلى جعفر بن قرهب: صاحب بيت المال، فقال له: ما عندك من الدنانير ضرب هذه السنة؟ وكان ذلك في أولها. فقال له: مائة ألف وستون ألفاً: فأمره بحملها من ساعته إلى الأمير تميم مع راشد العزيزي، وقال له: أمير المؤمنين يقرأ عليك السلام ويقول لك: استعن بهذه على مؤونتك! فقبل الشاعر الأرض[1].

وإذا كان شاعرنا تميم بن المعز قد ظلم في حياته بسحب ولاية العهد منه مع أنه – بحكم السن- كان المرشح لها، فأنه ظلم بعد مماته حين نسى الناس شعره، وحين قل المترجمون لسيرة حياته، وحين قل المتحدثون عنه في كتب التاريخ والأدب، فأخباره قليلة جداً لا تتكافأ مع ما كان له من منزلة شعبية في عصره، ولا نكاد نقع على خبر له إلا مبعثراً في كتاب هنا أو هناك؛ حتى ديوانه الضخم الحافل بفنون من الشعر الجزل الرصين الرقيق لم يقدر له أن يرى النور لأول مرة إلا في سنة 1957م حيث أصدرته دار الكتب المصرية في 476 صفحة مع تصدير للمرحوم المحقق محمد أبي الفضل إبراهيم، ومقدمة جليلة لمحققيه المرحومين أحمد يوسف نجاتي، ومحمد على النجار.

ومن عجب أن هذا الديوان العظيم لتميم بن المعز يظل مدفوناً طوال هذه القرون فيما يربى على ألف عام، مع أن ما فيه من شعر وشاعرية يؤكد ملامح مصرية قوية في العصر الفاطمي، بل يعد بداية رائعة للشعر الفاطمي، ولقد بلغ من إغفال هذا الديوان أن شعر تميم كاد ينساه الناس مع أنه كان مما يتغنى به في حياته وبعد وفاته، وأن

(1) الحلة السيراء لابن الأبار، ص 296.

كتب الأدب والتاريخ لا تكاد تروى له إلا مقطوعات وأبياتاً من هنا ومن هناك، كما في كتاب يتيمة الدهر للثعالبي، والمغرب لابن سعيد المغربي وحسن المحاضرة للإمام السيوطي، ووفيات الأعيان لابن خلكان.

وأعجب من هذا أن الظلم والنسيان والإغفال والإهمال قد تناول الشاعر تميم بن المعز حتى في اسمه، فتارة حرفوا اسمه إلى: (أبى تمام معد) كما جاء في كتاب (تراجم الأعيان) للحسن البوريني[1]، ولم يستطع الدكتور صلاح الدين المنجد محقق الكتاب أن يحقق هذا الاسم أو يقف عند تصحيحه.

وتارة يخلطون بين اسمه واسم والده: معد الملقب بالمعز لدين الله الفاطمي، وتارة يذكر اسمه: (تميم بن مُسْعد)، كما وقع على سبيل التحريف المطبعي في كتاب: (الأدب العربي في مصر) للمرحوم الأستاذ محمود مصطفى[2].

ولم يقف الظلم لشاعرنا تميم بن المعز عند هذا الحد، فقد أصابه الظلم حتى في تاريخ وفاته، فقد ذكر المحققان لديوانه المطبوع بدار الكتب المصرية- وهما من أفضل البحثين- أنه (توفى سنة 375هـ؛ وهو في نحو الثامنة والثلاثين من عمره)[3]، ولعلهما الوحيدان اللذان انفردا بهذا التاريخ من دون المؤرخين جميعاً. فما نعرف أن أحداً ذكر سنة 375هـ لوفاة الشاعر تميم غيرهما. ففي وفيات الأعيان لابن

(1) تراجم الأعيان، طبع مجمع اللغة العربية بدمشق، ج1، ص 52.
(2) كتاب الأدب العربي في مصر لمحمود مصطفى، ص 225.
(3) ديوان الأمير تميم، صفحة (ف).

خلكان أنه توفى سنة 374هـ وعنه أخذ خير الدين الزركلي في كتابه (الأعلام)، والمرحوم الدكتور محمد كامل حسين في كتابه (في أدب مصر الفاطمية).

أما ابن الجوزي صاحب كتاب المنتظم المطبوع بحيدر أباد الدكن في الهند وعنه أخذ ابن تغرى بردى في النجوم الزاهرة، وإن كان السيوطي ذكر فى حسن المحاضرة أنه توفى سنة 668هـ، وهو وهم أو تحريف لم يلتفت إليه محقق طبعة (دار إحياء الكتب العربية) من ذلك الكتاب[1].

وإذا كان الظلم قد اصطلح على شاعرنا تميم بن المعز من نواح كثيرة، فإننا لا نستطيع هنا أن نغفل ظلماً آخر وقع عليه وهو حي، وقد جاء هذا الظلم من بعض أقاربه الذى أشاع أن الأمير تميماً كان يستعين بغيره على عمل الشعر، فهو ليس شاعراً خالصاً له، ولكنه شعر اشتركت فيه قرائح غيره، ووجد هؤلاء الأقارب الحاسدون سبيلاً إلى نشر هذه الشائعات وترويجها.. فلم يجد شاعرنا مفراً من الرد عليهم ودحض أقوالهم وتسفيه آرائهم بمثل المقطوعة التالية التي يقول فيها:

أرى أناساً ساء بي ظنُّهُم ∴ في كلّ ما قلتُ من الشعرِ
لمّا تطأطأ بهمُ عِلْمُهُمْ ∴ قاسُوا بأقدارهِمُ قدري
قالوا سواه صانعٌ كلَّ ما ∴ يأتي به في السرّ والجهرِ
لو فهموا أو عقلوا لاستحَوْا ∴ أن يجعلوا المِرّيخَ كالبدر

(4) حسن المحاضرة، ج1، ص 561.

قِيسوا بشعري شعرَه تعلموا ∴ تضايُقَ النهر عن البحر

من بَطَّل الحقّ هجا نفسه ∴ بجهله من حيث لا يدري

فناظروني فيه أو فاشرحوا ∴ شعريَ إن أنكرتمُ أمري

أولا فقولوا حسدٌ قاتل ∴ مستمِكنٌ في القلب والصدر

وتذكرنا هذه التهمة – التي يخيل إلينا أنها رخيصة وغير صحيحة – بما اتهم به الوزير المصري طلائع بن رزيك – الملقب بالملك الصالح – من أن الأديب الشاعر المخصري المهب ابن الزبير كان يعمل له شعره..

فقد استكثر الأديب المؤرخ العماد الأصبهاني – صاحب الخريدة – على الوزير المصري طلائع بن رزيك أن يكون له هذا الشعر الجيد البليغ المحكم المعاني، فقال وهو يترجم له في الخريدة: (... وله قصائد كثيرة مستحسنة، أنفذها إلى الشام، يذكر فيها قيامه بنصر الإسلام. وما يصدق أحد أن ذلك شعره لجودته، وإحكام مبانى حكمته، وأقسام معانى بلاغته؛ فيقال إن المهذب بن الزبير كان ينظم له، وإن الجليس بن الحباب كان يعينه)[1]. ولم تقف هذه التهمة لطلائع بن رزيك عند العماد الأصبهاني صاحب الخريدة، بل إن ياقوتاً الحموي صاحب معجم الأدباء يؤكدها قائلاً: (إن أكثر الشعر الذى في ديوان الصالح- يعنى طلائع بن رزيك – إنما هو من عمل المهذب بن الزبير، وحصل له من الصالح مال جم، ولم ينفق عند أحد مثله ...)[2].

(1) خريدة القصر، وجريدة العصر، ج1 ص 174..
(2) معجم الأدباء، طبعه د. فريد رفاعي، ج9، ص 47.

ولا حاجة إلى القول إن اتهام الشاعر تميم بن المعز بأن غيره كان يشاركه فى عمل شعره إنما هو اتهام يحتاج إلى دليل، وها هو ذا ديوان تميم ابن المعز كله على ضخامته بين أيدينا، نقرؤه مرة، ومرة، ثم نبدئ ونعيد النظر فيه، ثم ننتقل من صفحة إلى صفحة، ومن قطعة إلى قطعة، ومن قصيدة مطولة إلى أخرى، فنجد النفس فيه مستوياً، لا دخل لنفس آخر فيه، ولا نجد فيه علوا أو هبوطاً- كما هو الشأن عند اختلاف الناظم- بل نجده كله على مستوى واحد من الجودة، ومن الروح الواحدة، ومن المذاق الواحد الذى قد يتغير بتغير الناظمين، ولماذا يستكثر الشعر الجيد على شاعر كتميم بن المعز، أو من جلة الوزراء الأمراء؟ الحق أن الشعر موهبة قد تعطى للأمير كما تعطى للفقير، وقد كان هناك فى الأدب العربى ملوك وأمراء يقولون الشعر ويجيدونه، كامرئ القيس فى الجاهلية، وعبد الله بن المعتز فى الإسلام، فلماذا لم يُستكثر عليهم ما استكثر على "تميم"، و"طلائع" فى العصر الفاطمى؟.

❖❖❖

تميم الشاعر وأسلوبه

لاشك أن الشاعر تميم بن المعز شاعر مصرى متميز فى أوائل العصر الفاطمى، ولا يستطيع مؤرخ للأدب العربى والشعر فى الدولة الفاطمية أن يغفل أو يسقط من حسابه هذا الشاعر الذى ولد بالمغرب وعاش فيه حتى أوفى على العشرين أو فوقها بقليل، ثم شاءت الأقدار أن

تنزله (مصر) بعد أن تم فتحها على يد والده الخليفة المعز بالجيش الذى سيره وعلى رأسه القائد جوهر الصقلى.

وقد دخل المعز مصر سنة 362هـ بعد أن فتحها جوهر سنة 358هـ، ومعه أبناؤه وأخوته وأهل بيته الفاطمى وجثث أسلافه، وكان شاعرنا فيمن دخلوا مصر وحُسبوا فى حساب شعرائها منذ ذلك الحين.

ولقد تنبه إلى قيمة الشاعر تميم بن المعز وشاعريته كثير من المؤرخين والأدباء القدامى، وكان شعره يتغنى به فى مصر فى عصره وبعد عصره لرقته ولما فيه من غزل تنبسط إليه النفوس، وقد شهد له (بالشاعرية الحسنة) اثنان من المؤرخين الأدباء، وهما ابن خلكان، وابن الجوزي، وعلى الرغم من ضياع أخباره، سجل له بعض الأدباء قصائد ومقطعات مختلفة كالثعالبى، وابن خلكان، وابن سعيد المغربى، والإمام السيوطى.

ولولا أن ديوان تميم ظل مفقوداً زماناً طويلاً لا نعقد له من الشهرة، وحصل من المعرفة به والتعرف إليه أكثر مما ناله بكثير، ولعل لنسبه الفاطمى دخلاً فى هذا، فالفاطميون كان لغرابة مذهبهم الدينى وعقائدهم سبب فى انصراف المصريين عنهم، وما كادت تسقط دولتهم حتى عاد إلى مصر وجهها السنى المألوف.

ومهما يكن من أمر فقد امتاز الشاعر تميم بتمكنه من الشعر وقدرته عليه، وطول نفسه فيه، فمدحته الأولى لأخيه العزيز فى الديوان تبلغ 75 بيتاً، وثاني قصائد الديوان في الطرد ومدح العزيز تبلغ ثمانين بيتاً.

وقد نظم شاعرنا من كل بحر، وعلى كل وزن من الأوزان المألوفة، ونظم من البحور كامله ومجزوءه، ونظم قوافيه ورويه على كل حروف الهجاء ما عدا الثاء الفوقية المثلثة، والذال المعجمة، والغين المعجمة.

وكانت القافية سهلة منقادة له، فلا يجتلبها بقوة، ولا ينزلها غير منازلها، ولا تشعر أن قوافيه قلقة أو في غير موضعها، وهذه مواتاة في النظم تدل على مواتاة في الطبع.

وقد آثر النظم على (الرجز)، وخاصة حين كان يقول في شعر الصيد والطرد، وأراجيزه إما كاملة أو مجزوءة، ومن رجزه ما خاطب به صديقه ابن الرسي.

ومن أراجيزه الطردية أرجوزته التي يقول في مطلعها:

قد أغتدى والليل في دجاه ∴ والصبح لم ينهض به سناه

وأرجوزته الهمزية التي يمدح فيها أخاه العزيز ويفتتحها بالطرد قائلاً:

ومهمه مشتبه الأرجاء ∴ جهم الفيافي، موحش الهيماء

وأرجوزته الدالية التي يقول في مطلعها:

وصامت الجو بعيد الفرقد ∴ مشتبه الأعلام جهم المشهد

وأرجوزته الرائية التي يمدح فيها أخاه العزيز، ومطلعها:

ربع لأسماء بربع دار ∴ بين نقا الصمان فالضمار

ويلاحظ أنه سلك في أراجيزه مسلك الإغراب في اللفظ، كما كان يفعل الشعراء من قبله في رجز الطرد، وذلك كقوله في هذه

الرائية المشار إليها:

تأبـــدت إلا مـــن الإقفـــار ∴ ومـن شـجيج فـي الثرى مـوار

وشـطر نـؤى دارس الآثـار ∴ كأنـــه مقســـم الســـوار

أخنى عليها كل غاد ساري ∴ دانـى الربـاب، شاسـع الأقطـار

واهـى الكلـى، منفتـق الإزار ∴ كـــأن لمـــع برقـــه المثـــار

يفتر عن مثل أوار النار

أما ألفاظه فى شعره غير الرجز فهي سهلة سمحة ليست غريبة ولا جافية ولا جاسية، ومن هنا كان في شعره تلك الرقة التي جعلته صالحاً للغناء.

وإذا كان في ألفاظ شاعرنا رقة، فإن تعابيره في جملتها رقيقة كذلك، وكأن مصر خلعت عليه من سهولتها ورقتها ما بان على شعره، وما أرق تميماً وهو يقول:

صنتك عن لحظي يا من غدت ∴ تكاد من رقتها تجرى

أو يقول فى السكر:

أنـــا مـــا بـــين نـــداما ∴ ى وراحـــــي وســـــقاني

ثمـــل لا أعـــرف الصـــحو ∴ ولا وقـــــت الصـــــلاة!

أو يقول متغزلاً:

يـــا غـــزالاً إذا شـــكوت ∴ إليـــــه تصـــــلفاً

وإذا رمـــــت وصـــــله ∴ صـــد عنـــى وســـوفا

وهـو مـن بعـد ذا يسـلُ ∴ بعينيـــــه مرهفـــــا

ليتـــه جـــاد لـــي الغـــدا ∴ ة بوعـــــــــــد .....

ولقد بلغ من تمكن شاعرنا في الشعر أنه كان يرتجل أحياناً في بعض المناسبات العارضة التي لم يستعد لها، فيأتي ارتجاله وبديهته مثل إعداده، مما يدل على مطاوعة المعاني والألفاظ له، وعدم معاصاتها إياه، ومن ارتجالاته اللطاف أبياته التي هنأ بها أخاه العزيز بقصر ابتناه، ومطلعها:

نجـوم سـعودك لا تفتـر ∴ وآيـات فضـلك لا تنكـر

وفـى كـل مـا أنـت فعالـه ∴ لـك المعجـزات التـي تبهـر

فمجـدك مـا فوقـه مصـعد ∴ وقصـرك مـا بعـده منظـر

وإذا كنا قد ذكرنا هنا أن تميم بن المعز كان يحب الخمر صرفاً غير ممزوجة فإنه –من ناحية أخرى- كان يحب المزج فى أشياء أخر.. فكان يمزج فى قصائده بين الغزل والخمريات، ويمزج بين شعر الطبيعة وشعر الغزل، ويمزج المدح بالخمريات، فالمزج هنا هو خاصيته المفضلة، أما مزج الخمر بالماء فلا!! ويحسن وهو يستمدها من بيئته ومواعين بيته، فإن شاعرنا تميماً كان كذلك مولعاً بكثرة التشبيهات، وهى ظاهرة نلاحظها فى شعر ابن وكيع التنيسي، والشريف العقيلي، وظافر الحداد من شعراء العصر الفاطمي، أو من شعراء مصر الفاطمية.

ولقد أكثر تميم من التشبيهات، واستعمل للتشبيه كل أداة

ممكنة، كالكاف، أو مثل، أو كأن، أو يشبه، أو تحسبه. كما استعمل التشبيه البليغ بحذف أداة التشبيه ووجه الشبه، وإبقاء المشبه والمشبه به. ومن تشبيهاته قوله فى الخمر:

فهى كالورد حمرة وذكاء ∴ وهى كالليث جرأة ولقاء

وقوله فى تشبيه البدر:

والبدر منتصب ما بين أنجمه ∴ كأنه ملك في وسط موكبه

وقوله فى مدح العزيز:

كأن ملوك الأرض فى الأرض ظلمة ∴ وأنت على الآفاق ضوء نهار

وبلغ من غرام شاعرنا بالتشبيه أنه كان يلجأ إلى توالى التشبيهات للمشبه الواحد في البيت الواحد، كقوله فى مدح العزيز:

أنت ليث وأنت بحر، وغيث ∴ وسحاب جزل، وشمس، وبدر

فهنا ستة تشبيهات لمشبه واحد.

ويحفل شعر تميم بظاهرتين اثنتين هما من أثر البيئة الفاطمية التى دخلت إلى مصر بمعتقداتها ومذاهبها، والبيئة المصرية التى انتقل إليها شاعرنا بعد فتح مصر بأربع سنين، فقد أدخل فى شعره كثيراً من عقائد النحلة الفاطمية وتصوراتها كقوله فى مدح العزيز:

إنما أنت (حجة الله) لاحت ∴ في البرايا، ووارث الأنبياء

وقوله في مدح والده المعز لدين الله الذى فتحت مصر فى عهده:

ليهنك أن الله فوقك مالك ∴ ودونك كل المالكين عبيد

وقوله في مدح أخيه العزيز :

وكيف يعتادنا فيك الخلاف وقد ∴ أتى بفضلك نص الوحى والسور

وقوله فيه أيضاً:

بـدت لـك آيـات عليـك شـواهد ∴ بأنك أنت المصطفى من أولى الأمر

وأنـك أنـت الخـامس القـائم الـذى ∴ تـدين لـه أرض العراقيين عن قسر

وقوله فيه أيضاً:

مـا أنـت دون ملـوك العـالمين سـوى ∴ روح من القدس في جسم من البشر

نـور لطيـف تنـاهى فيـك جـوهره ∴ تناهيـا جـاز حـد الشـمس والقمـر

معنى من العلة الأولى التي سبقت ∴ خلق الهيولي، وبسط الأرض والدر

أما البيئة المصرية فقد صورها تميم من نواح كثيرة تركت في شعره ملامح من مصر الخالدة، فهو يصف النيل، وبركة الحبش، وعين شمس، ودير القصير، وبلبيس: كما يصف بعض الأعياد والمواسم المصرية الخاصة، كليلة غطاس النصارى.

وقد تسرب إلى أسلوب تميم بن المعز الشعرى بعض الهنوات التي لم يكن منها بد، لبدء دخول الفساد على اللغة والنحو من جهة، وللتهاون الذى لم يعصم شاعرنا من الخطأ من جهة ثانية، ولعدم إتاحة الثقافة اللغوية الصحيحة له من جهة ثالثة، فنراه تارة يقصر الممدود ويمد المقصور لضرورة شعرية، وقد يكون هذا مقبولاً مستساغاً لو اعتدل فى استعماله، أما الإفراط فيه فذلك مما يعيب جمال شعره، ونراه تارة

أخرى يلجأ إلى لغة (أكلونى البراغيث) وهى لغة ضعيفة رديئة، وقد كان له عن استعمالها مندوحة لو تحرى وقصد الاستعمال الأعلى، ولكنه تهاون وأسرف فى ذلك إسرافاً شديداً، كقوله:

نظمتُها للهدى ولبتـه ∴ وإن سخطن الكواعب العرب

بدلاً من: وإن سخط الكواكب، وكقوله:

وقرع "يزيد" بالقضيب لسنه ∴ لقد مجسوا أهل الشآم وهادوا

بدلاً من: لقد مُجِّ أهل الشام، وكقوله:

لو تأملنى العيون لأجرى ∴ لحظها رقة مع الماء جلدي

ونراه مرة ثالثة يقطع همزة الوصل، ويصل همزة القطع لضرورة شعرية، كقوله:

أأحصى أياديه ومن بعضها أنا ∴ أم انعت جدواه ومن بعضها قدرى

وكقوله:

فاعطوا التذاكُر والصهباء حقهما ∴ فيها، وقضوا من اللذات أوطارا

وكقوله في مطلع قصيدة يخاطب فيها العزيز:

يا يوماً أسعفنا بكل سرور ∴ طيبا، فنلنا منه كل حبور

ونراه فى رابعة يستعمل لفظة (الرؤيا) خطأ بمعنى الإبصار، وهى لا تستعمل إلا لما يرى فى الحلم والمنام، أما للإبصار فتستعمل لفظة (الرؤية).

ونراه خامسة يحذف المشبه الموصوف اكتفاء بفهمه من السياق، وهى ظاهرة تلوح بكثرة فى شعره، كقوله:

تفتر عن كاللؤلؤ المنضد ∴ صيغ لها من عسل مجمد

وكقوله:

تفتر عن كالجمان منتظم ∴ يصافح اللثم بارداً، خصرا

وكقوله:

وهبك سفرت عن كالصبح حسنا ∴ فكيف بسمت عن الأقحوان

وأصل الكلام في هذا: تفتر عن ثغر أو أسنان كاللؤلؤ أو كالجمان، وهبك سفرت عن وجه كالصبح، فكيف بسمت عن ثغر كالأقحوان.

ونراه مرة سادسة يحذف (أن) بعد الظرف: (قبل) كقوله:

ويمنعني الشكوى إلى الله علمه ∴ بجملة ما ألقاه قبل أقول

أي (قبل أن أقول). وكقوله من مدحة لأخيه العزيز:

لا أدعى الفضل بل يشهد لي ∴ به أدائي الدنى وأقصاها

أي: (قبل أن يشهد لي به...)

ونراه سابعة يفصل بين أداة الجزم "لم" وبين فعلها بفاصل آخر غير الفعل من أن المعهود في أساليب الفصاح هو معاقبة الفعل للحرف "لم" مباشرة وهذا يبدو غريباً، كقوله:

وأنت السيف لا يفرى ∴ إذ ما لم – به– يُفرى

وقد أغرم شاعرنا في بعض شعره بنوع من البديع فشا في العصور المتأخرة عن عصره، ومنه قوله:

يداه ثم وجنته وقلبي ∴ شهاب، في شهاب، في شهاب

عـداوتهم، وعـذلهم جميعـاً ∴ سـراب، فـي سـراب، فـي سـراب

بنفسـجها، ونرجسـهاً، وورد ∴ خضاب، في خضاب، في خضاب

فـأبريقي وكأسـى، والغـوادي ∴ سحاب، في سحاب، في سحاب

فرأيـك، ثـم شـربك، والغـواني ∴ صواب، في صواب، في صواب

وهذا وأشباهه وغيره هو من الصناعات اللفظية المتكلفة، التي بدأ بها تميم بن المعز في العصر الفاطمي، ثم أخذت تشيع على توالى العصور قرابة تسعمائة عام، إلى أن تخلص منها بحمد الله عصرنا الحاضر تخلصاً بلا عودة ولا رجوع....[1].

* * *

أغراض من الشعر
عالجها تميم بن المعز

لقد نظم تميم بن المعز الشعر فى الأغراض القديمة الموروثة المتعارفة بين الشعراء، ولم يترك غرضاً من تلك الأغراض إلا عالجه ونظم فيه، ونستطيع أن نقول إنه كان نموذجاً مكرراً لمن سبقه من الشعراء.

أما مطالع قصائده فلم يستهلها بالوقوف على الأطلال، لأنه لم يعد هناك أطلال يوقف عليها، ويبكى على دمنها، ولكنه استهلها بالغزل الذى يتوصل به إلى غرضه الرئيسى من القصيدة، وبالخمر التى لم يكن يتناولها فى مفتتح قصائده تناول مقلد للقدماء أو محاك لهم،

(1) راجع مصر الشاعرة في العصر الفاطمي، ص 19 وما بعدها.

ولكنه كان شاعر خمر حقيقة، وكان يحب الكأس، ويشرب الخمر صرفاً أو ممزوجة، ويصف مجالسها، وندمانها وسقاتها وحبها وريحانها وفورانها حين تمزج، فهاهو ممارس للخمر ممارسة حقيقية، وهو عاكف عليها فى بساتينه وقصوره التى كان يهيئ له أخوه الخليفة العزيز بناء بعضها، ولعله بذلك كان يشغله عن المشاركة فى الحياة العامة التى لم يكن من مصلحته أن يشارك فيها.

وخمريات الشاعر تميم المستقلة أو المصنوعة فى مفتتح قصائده تذكرنا بالشاعر ابى نواس وخمرياته، وإن كان أبو نواس أميراً لا يشق له غبار، وكذلك غزليات شاعرنا التي يفتتح بها قصائده، ولعل تميماً في مطالعة الخمرية كان متأثراً بأبي نواس الذى قال:

صفة الطلول بلاغة القدم ∴ فاجعل صفاتك لابن الكر

ولا نجد شاعرنا تميماً قد فاته غرض من الأغراض الشعرية التي كانت سائدة في عصره، وإن كان قدر كل غرض يختلف بحسب أهميته لديه، ومعالجته له، فنجده قال في المدح والهجاء والتهنئة والرثاء والعزاء والغزل والخمر، بل نجده نظم في الزهد والموعظة والحكمة.

وليس الزهد والموعظة غريبين من شعراء الخمر، واللهو والغزل، بل يبدو أن الزهادة ملازمة لهؤلاء الشعراء في حال التناول أو في حال التوبة على حد سواء، ولعلها بالطبع إحساس منهم بالإثم وتكفير عن الذنب.

وسنتناول فيما يأتي الأغراض التي نظم فيها تميم بن المعز غرضاً غرضاً متتبعين تطورات ذلك الغرض وملابساته واتجاهاته، كالمدح

مثلاً، فإنا سنتعقب رأيه في شعر المديح، ومن الذين مدحهم، وهل كان يمدح مستجدياً أم مستغنياً؟ وهل كان يمدح للمناسبات العارضة، والظروف الطارئة أم يمدح بلا مناسبة؟ وهل كانت مدائحه أصيلة أم عارضة في غير معرضها الأصلي؟ وهل كان يدخل على المدح مباشرة في مطلع القصيدة . أم يتوصل إليه بما كان يتوصل إليه الشعراء من خمر وغزل، وكذلك سنفعل في بقية الأغراض التي عالجها تميم مع الاستشهاد الحاضر الذى يؤكد القضية.

ـ المدح :

نلاحظ في شعر المديح عند شاعرنا تميم أنه لم يرسله لكل إنسان، ولم يطلقه لكل ممدوح، وديوانه الضخم بين أيدينا يؤكد أن مدائحه لم تعد شخصين اثنين، هما أبوه الخليفة الفاطمي المعز لدين الله، وأخوه الخليفة العزيز، وهى مدائح أصلية بالمعنى المفهوم من شعر المديح، أما شعره الذى فيه تقدير وإعلاء المرسيين الطالبيين، وعلى رأسهم الحسين بن إبراهيم الرسي صديقه وصفيه ونديمه، فهو لون من شعر الإخوانيات، ولا يعد مدحاً بالمعنى المفهوم.

وبالطبع لم يكن مقام الشاعر تميم بن المعز، وموضعه من البيت الفاطمي ومكانه من الخليفتين المعز لدين الله، والعزيز- لم يكن ذلك ليسمح له أن يمدح إنساناً غيرهما مهما كان قدره، ولعل إحساساً بالاستعلاء يملى على شاعرنا أن لا يتوجه لغير والده وأخيه بالمدائح، والمدائح في أغلبها مظنة الفائدة التي تعود على المادح من الممدوح، وشاعرنا تميم لا يرجو فائدة، ولا يلتمس نفعاً ولا جدوى من إنسان،

لذلك ظلت مدائحه محصورة في نطاق والده المعز، وأخيه العزيز، كما ظلت تقديراته الأخلاقية محصورة في نطاق الحسين بن إبراهيم الرسى، وهو من أشراف العلويين، فإذا مُدح فمدح إخاء فلا ينقص ذلك من قدر مادحه شيئاً.

والراسيين - بهذه المناسبة- من نسل الحسن بن على بن أبى طالب، فهم يلتقون مع الشاعر تميم بن المعز في أكثر من ملتقى، ونسبتهم إلى الرسم وهو جبل بين اليمن وعمان، وقد سكن جماعة منهم بمصر، وكان منهم الشاعر الحسين الرسى الذى كان يتقارض الأشعار مع شاعرنا تميم، وشاعرنا تميم يوقن بأن المديح هو أغلى ما يقدمه الشاعر، وأبقاه على الدهر، وكل ما عداه – مما يقدم إلى الغير- من الهوالك الفنية، ولهذا كان من سنته إذا أرسل هدية لأبيه أو لأخيه قدم بين يديها بالشعر، لأن الشعر هو أغلى الهدايا، ويعبر عن هذا بقوله من قصيدة يهنئ بها أخاه العزيز بسلامته من الفصد، وقد بعث التهنئة الشعرية هدية مادية:

بعثت بمدحى قبل كل هدية ∴ لأنى له - دون الهدية- مالك
ولا شيء غير المدح يبقى لأنه ∴ مقيم جديد، والهدايا هوالك

ويتقصى شاعرنا فى ممدوحه كل الصفات الطيبة والخلال الكريمة التى امتاز بها، فأبوه المعز- مثلاً- ملك قرم سبقت إليه عوارفه، لم يقصر عن كسب المحامد ولو كانت بين أنياب الأسود، ويعلم الأمور قبل كونها – إما إلهاماً أو بصيرة – وهو يتلف المال

بالعطاء، فليس بينه وبين المال ذمام، وسحائب معروفة تهمى بلا وعد ولا وعيد، وهكذا يمضى فى مدحه للمعز في قصيدته التي مطلعها:

بعد وجع الوجد ما هيج البعد ∴ وأوجع منه قرب من قربه الصد

وفى مدائح شاعرنا تميم نراه يجمع بين التهنئة والمديح في المقام الذى يستوجب التهاني، فإذا هنأ ممدوحه بمناسبة من المناسبات فإنه يحشد لها من المدح ما يستحقه الممدوح، كما كان يفعل حين يهنئ أخاه العزيز بعيد الفطر، أو يهنئه بشهر الصيام، أو يهنئه بالشفاء من علة، أو يهنئه بمولود.

وأغلب مدائح تميم في أبيه المعز وأخيه العزيز تستهل دائماً بالغزل تارة، والخمر تارة، وأحياناً يجمع بين الغزل والخمر في مفتتح قصيدة المدح، وأن هذا الممدوح هو أبوه أو أخوه، ولقد أسرف شاعرنا في هذه الخمريات والغزليات الاستهلالية، وأطال فيها، وأغرق في مجونه فيها إلى حد يجعلنا نتساءل: أين هيبة الخلافة؟ وأين جلال الملك؟ ولكن يبدو أن المجون كان غالباً عليه حتى في المقامات التي يتوقع فيها الوقار، وإلا فكيف نفسر قوله متغزلاً واصفاً وشارباً في مدحة له للعزيز يقول فيها:

يا من تشفى بعذابي به ∴ إني لأستعذب منك العذاب
لو فتشوا جسمي ما أبصروا ∴ غير الأسى يسرح بين الثياب
لا زال سقمي وعذابي علىَّ ∴ سقم المآقي، والثنايا العذاب
لا خير في الحب إذا لم يكن ∴ في أنفس العشاق ماضي الحراب
في خد من تيمني من دمى ∴ رشح، وفى كفيه منه خضاب
كأنما الإصباح من وجهه ∴ لاح، ومن خديه ذاب الشراب

لمـــا تشـــكيت إليـــه الهـــوى ∴ بألســـن الـــدمع رثـــى واســـتجاب

وزارنـــي تحـــت رواق الـــدجى ∴ والليـل فـي صـيغ جنـاح الغـراب

فبـات يعطينـــي مـــن وصـــله ∴ أضعاف ما أعطى من الاجتناب

إذا ســقاني الــراح مــن كفــه ∴ مزجتهـا لثمـا بـراح الرضـاب

كأنها في الكأس ما جال فى ∴ خديـه مـن رقـة مـاء الشـباب

حتـى تـولى الليـل فـى جيشـه ∴ وحـل ضـوء الصـبح عقد النقاب

كأنمـــا الليـــل بإصـــباحه ∴ كـان عـذارا حالكـاً ثـم شـاب

أو كـان مثـل الجـور فـى لونـه ∴ فحلـــه عـــدل (نـــزار) فغـــاب

قل لأبى المنصور يا خير من ∴ أقـــام أو حـــث لمجـــد ركـــاب

ويـــا إمامـــاً قابلـــت ملكـــه ∴ لـوائح الإقبـال مـن كـل بـاب

خولـك القـدرة والنصـر مـن ∴ حبـاك بـالحكم وفصـل الخطـاب

وهكذا خلص شاعرنا إلى مدح أخيه العزيز نزار أي المنصور، بعد أن سلك إليه، مسالك مع المحبوب، وبعد أن احتسى الخمر من كفه ممزوجة لثماً بخمر الرضاب! وهناك مدائح وتهان من شاعرنا إلى ممدوحيه دخل بها على الغرض مباشرة دون غزل أو تشبيب أو خمر أو كأس. كمدحته لوالده المعز حين عمل "شمسية" لبيت الله الحرام بمكة، التي افتتحها بالمدح مباشرة قائلاً:

إليـك مـدت رقابهـا العـرب ∴ والملك ماء عليك منسكب

وأنـت مـن دوحـة النبـوة لا ∴ تـألف إلا عـداتك الريـب

ألست من يرهب الإله، ولا ∴ يصده عن حدوده سبب

وكأبياته إلى أخيه العزيز التي بعثها مع سنية:

خليفة الله إن الدهر مذ طلعت ∴ فيه سعودك بادى الحسن محبوب

وكقصيدته التى قالها فى مدحه ومطلعها:

ولما رأيت الله حض على الشكر ∴ وجازى عليه بالجزيل من الأجر

وقال: اشكروا لي يا عبادي أزدكم ∴ شكرت أمير المؤمنين على برى

وكقصيدته التي بعث بها إليه من القاهرة حين أقام أياماً بسردوس. ومطلعها :

لا استوحشت لك أربع وقصور ∴ وأقام ملكك ما أقام ثبير

وكمدحته للمعز لدين الله والده، التى افتتحها بقوله:

يا من حوى الفضل وحاز الفخرا ∴ وكسف الشمس وفاق البدرا

ـ العتاب:

يشتمل ديوان تميم على بعض أبيات العتاب، ولكن العتاب ليس ظاهرة فاشية فى شعره، ولعل مرد ذلك إلى سماحة طبعه التي جعلته لا يحاسب الأصدقاء على هفواتهم وجعلته يتغاضى عن عتابهم. أو لعلنا نضيف إلى ذلك سبباً آخر، وهو أنه كان مقلاً جداً من الأصحاب، فهو منطو على نفسه وعلى كأسه فى قصره وبساتينه، لا يخالط الناس، ولا يتلقى منهم ما قد يوحى بعتابه على تصرفاتهم، وأغلب معاتباته وقعت بينه وبين صفيه الحسين بن إبراهيم الرسى، وهو عتاب على غير ذنب شديد أو جريرة صارخة، وإنما هو عتاب على صديقه الحسين لأنه أخر عنه رسائله، وقصر فى إرسال الرقاع إليه، وهى مما كان يتعزى به شاعرنا،

على أنه في عتابه رقيق مهذب، لا يغلظ في القول، ولا يعنف في اللوم، فيقول لصاحبه

أسهوا يا ابن إبراهيم عنى ∴ فأسهو أم أعاتب أم أراع

ومثلك لا يبيع أخا ببخس ∴ على حال، ومثلى لا يباع

وهذه القصيدة العتابية تجرى كلها هادئة على نفس هادئ، وطبع غير محتد ولا مستوفز، وغفران للمقصر، وعدم جنوح إلى الانتقام، ومقابلة النسيان من صاحبه بالنسيان، وما أرقه وهو يقول لصاحبه:

سأذكر إن نسيت قديم عهدي ∴ وأسهل إن ألمَّ بك امتناع

وهنا تأس بآداب القرآن، ودفع للسيئة بالتي هي أحسن.

ـ الفخر:

تغلب نزعة الفخر عند شاعرنا تميم، وهو في هذا ليس جارياً على غير ما يستحق، ولا مغتصباً ما ليس له، فمكانته من البيت الفاطمي تسمح له بأن يفخر ويطيل الفخر إلى أبعد الآماد.

وقد يأتي الفخر في شعره مباشرة، فهو يهيئ القصيدة كلها للافتخار، وكأن ذلك هو مدعاته الأولى، ولم يقم في ذهنه غيره، وتستطيع أن تميز قصيدة الفخر فى ديوان تميم بالتقديم لها .

وأحياناً يأتي الفخر فى خلال قصائده الأخرى، وفى عرض مدائحه ففي قصيدة طويلة له في مدح العزيز بالله يعرج على الفخر بنفسه قائلاً:

ولكنني للمجد أرتاح والعلا ∴ وللجود والإعطاء أصبو وأطرب

وللحلم يوم البطش منى حمية ∴ وللحفظ يوم الغدر فىَّ تغضب

ومن بين جنبيه كنفسي وهمتي ∴ يروح له فوق الكواكب موكب

ومن أين لا أغدو ولى كل مفخر ∴ يضيق افتخار الناس عنه ويحجب

ولى من (نزار) لحمة شد نسجها ∴ (معد) ويحويني وإياه منصب

وقربى تراضعنا جميعاً لبانها ∴ وصنو إذا عد الإخاء ومنسب

وإذا كان شاعرنا تميم على حق فى افتخاره بآبائه وشرف نسبه الفاطمي، وسيوف أجداده التي فتحوا بها البلاد، وإذا كان على حق فى فخره بخلقه وكريم صفاته، فأنا نراه قد جاوز الحد فى افتخاره بمضارب سيفه، مع أن ما وصل إلينا من أخباره لا يدل على أنه نزل ميداناً، أو أمسك سناناً، إلا إذا كانت مغامراته الأولى فى المغرب – قبل مجيئه إلى مصر- وميوله مع الساخطين على أبيه المعز سبباً فى استعداده للافتخار.

وإذا جاز لنا أن نسمع من تميم بن المعز افتخاره بصبره على الأهوال، وبأنه لا يفرح إذا الدهر سره، ولا يعتب إذا أساء إليه، وبأنه جواد معطاء بذال للأموال، وبأنه حليم فى حمية، هازل فى وقار، فما بالنا نسمع منه فى فخره أنه أخو السيف، ورفيق النصل، وشقيق الرمح، وفارس الغمرات؟

وما بالنا نسمع منه يقول مفتخراً:

ألقى الكمي ولا أهاب لقاءه ∴ ويفل إقدامي شبا الحدثان

وأكر في صدر الخميس معانقا ∴ للموت حين يفسر كل جبان

ويزيـــدني ذل الخطـــوب تعظمـــا ∴ وتســـلط الأيـــام عـــز مكـــان

وما بالنا نسمع منه وهو يقول فى وصف فلاة:

قطعته يقظان لم أستنجد ∴ إلا بمتن الصارم المهند

وما بالنا يقول في إحدى غزلياته:

ولما هززت السيف ثم اشتملته ∴ على ذابل اضنى من الصب فى الد

لحتني وقالت: لم تشبهت ظالما ∴ بلحظي، وقدى. قلّ هذا وما يجدى

وما باله يقول في مدحه لأخيه العزيز:

إذا قلت لم أعْدُ فصل الخطاب ∴ وإن صلت أيقظت عين الردى

ولـــم أرم ســـهمي إلا أصـــبت ∴ ولـــم أدع بالـــدهر إلا احتـــذى

ولا أشـــرب المـــاء إلا دمـــا ∴ إذا عرضـــت لـــى طـــرق الأذى

وما باله يقول فى أبيات له فى الفخر:

تركنـــا النعـــيم لأهـــل النعـــيم ∴ وجئنـا العنـاء لكـى نستريحا

ونطـــرد بـــالعز ذل الخمـــول ∴ ونشرب مـاء المعالى صبوحا

رءوس الرمـاح، وحـد السـيوف ∴ يقـــودان للطـــالبين الفتوحـــا

وما باله يقول مفتخرا:

إنمـا السـيد المعلـى المفـدى ∴ مـن عـلا للعـلا صـدور الرمـاح

ورمـــى ليـــل كـــل خطـــب بهـــيم ∴ بـــذكاء أضـــوا مـــن المصـــباح

واقتنـــى العـــز بالظبـــا والعـــوالى ∴ واشـترى الحمـد بالنـدى والسماح

وإلا فأين هذه السيوف والنصال، وهذه الظبا والرماح التى خاض بها شاعرنا الأهوال؟ نحن نعرف أن القرامطة دخلوا مصر بقصد انتزاعها من يد الفاطميين سنة 363ه، ونعرف أن جماعة من أبناء الفاطميين

كانوا على رأس المدافعين عن مصر، وكان قائد الجيش الفاطمى لطرد هؤلاء المغيرين هو الأمير عبد الله – كما يقول المؤرخ ابن ميسر. ونعلم أن الخليفة المعز والد شاعرنا قد استمال أحد رؤساء القرامطة وأحلافهم من البدو بالمال الذى كان زائفا.. فردهم على أعقابهم. ولكنا لم نسمع أو نقرأ أن شاعرنا تميما اشترك فى معركة أو تقلد السيف فى موقعة، إلا ما كان من مشاركة للفتن التى أقامها الساخطون على أبيه المعز فى المغرب، وقد كان واجبه حين قدم إلى مصر أن يشترك فى رد المغيرين عنها، ولكنه كما يقال:(ظل بمعزل عن كل عمل عام، بل أهمل إهمالاً شديداً جعله يسلو عن ذلك باللهو والمجون..)[1].

ألا يجوز لنا أن نقول بعد هذا الموقف السلبى من تميم فى المعارك أنه أضاع كثيراً من المشاركات فى الفتوح التى كسبها أخوه العزيز، ففى أيام العزيز فتحت لمصر حمص، وحلب، وحماة، وخطب للعزيز فى الموصل واليمن. وفى أيام العزيز قامت حروب بين العرب والروم شارك فيها الجيش المصري مشاركة فعالة، ولكنا لم نسمع لشاعرنا حسا ولا خبراً فى هذه الحروب، بل سمعنا غزلياته ومجونه وخمرياته يرسلها من خلال معتكفه فى قصره وبستانه..

الحق أن خيال شاعرنا تميم بن المعز فى الافتخار بالسيف والرمح وخوض غمرات الوغى كان أكبر جداً من الحقيقة، وإلا فتاريخه المعروف وتاريخ أخيه العزيز وحروبه ليس فيهما ذكر لمشاركة له فى المعارك. وكيف يتهيأ العاكف على لهوه ومجالس قصفه لحرب، أو

(1) ديوان تميم بن المعز، صفحة م من المقدمة.

يتعرض لتقلد رمح وهو مشغول عن ذلك كله بالمتع التى قد يكون هيأها له أخوه لشغله عن الاشتراك فى الحياة العامة، ضماناً للأمن من ناحيته..

ـ الرثاء:

فى شاعرنا تميم بن المعز وفاء يلوح لنا من خلال تصرفاته مع الناس ومع الأصدقاء. وإذا كان الرثاء في حد ذاته مظهراً من مظاهر الوفاء للأموات فإن شاعرنا تميما يملك من هذا الوفاء قدراً كبيراً. لقد مات أبوه المعز لدين الله فرثاه، ومات أخوه عبد الله ثانى أبناء المعز فرثاه على الرغم من أنه كان محجوباً عن ولاية العهد، فلم يقعد به اليأس من الولاية والأسى عليها عن أن يؤدى واجب الوفاء لأخيه المتوفى. ثم مات أخوه (عقيل) فقام نحوه بواجب رثائه. ولقد كانت مرثيته لعقيل كمرثيته لعبد الله من بحر واحد هو الخفيف. ومن قافية واحدة هى الراء. ونلحظ فى المرثيتين أثر المصاب في نفس شاعرنا، فهو حزين موحش مطار اللب، وهو مكدر العيش في المصيبتين اللتين ذكرتاه بمآسي أجداده وآبائه الفاطميين. وإذا كان أخوه عبد الله قد مات فى حياة أبيهم (المعز) فإن عقيلاً مات بعد وفاة والدهم، وكانوا ثلاثة أحدهم الخليفة العزيز، ولا يستطيب شاعرنا البقاء بعد وفاة أبيه وأخيه عقيل، فيقول جزعاً:

كيف يبقى امرؤ تولى أبوه ∴ وأخوه، فحبله مبتور؟

وتثير أحداث الموت في نفس شاعرنا ذكريات الشهداء والموتى من أهل البيت، كما تثير المآسي الدامية التي تعرضوا لها، والفواجع الأليمة التي نزلت بهم. ففي مرثيته لأخيه عقيل يعرج على الماضين من آل البيت

ويتساءل قائلاً:

أين آبائي الذين تفانوا ∴ وبهم كانت الليالي تنير؟

أين جدى حسين بن على ∴ أين زيد المفجع الموتور؟

ولا تقع لتميم في ديوانه الضخم، وبين مراثيه الكثيرة المطولة، إلا على مقطعة قصيرة فى رثاء والده المعز تبلغ عدة أبياتها خمسة. ولا ندرى إن كانت طويلة ولم يقع لناسخ الديوان إلا هذه الأبيات الخمسة، أم أن الشاعر اكتفى بها فى مقام لا يجدى فيه طول النوح ولا كثرة البكاء. ولا ندرى إن كان شاعرنا فى نفسه آثار مما فعله به أبوه من صرفه عن ولاية العهد إلى أخيه الآخر، ولكنه على كل حال كان متعلقاً به، ولم يقصر عن أن يقول فيه شعراً مؤثراً حين اعتل علته الأولى وعلته الثانية بمصر التى يقول له فيها:

لا نالك القسم المحذور إن وردا ∴ وعشت فينا عزيزاً سالماً أبدا

الله يعلم أنى مذ سمعت؟ ∴ دهاك عاود قلبي الشجو والكمدا

ولا يقال أن الشاعر هنا كان مجاملاً أو كان يلجأ إلى (الرسميات) في لحظات اعتلال والده، فلم يكن له مصلحة في مجاملة، وقد كان يمكنه أن يلوذ بالصمت المطبق في هذا المجال، وليس عليه من نقد أو ملام.

وإذا كانت مراثي إخوته ووالده تثير في نفسه أشجان الفاطميين والطالبيين فإنه في أكثر من قصيدة استقل برثاء أهل البيت من غير أن يكون هناك مقتضى من إثارة بموت قريب أو حميم، وله دالية قائمة بذاتها فى رثاء أهل البيت يقول في مطلعها:

تـأت بعد مـا بـان العـزاء سـعاد ∴ فحشـو جفـون المقلتـين سـهاد

فليـت فـؤادي للظعـائن مربـع ∴ وليـت دمـوعي للخلـيط مـزاد

نـأو بعد مـا ألـت مكايـدها النـوى ∴ وقـرت بهـم دار، وصـح وداد

وقد بلغ من خلة الوفاء عند شاعرنا أنه كان يرثى من اتصل به اتصالا قريباً، فتراه مرة يرثى قينة له، ومرة أخرى يرثى جارية له توفيت قبل وفاته بشهور، فيقول:

كانـت رضـا الـنفس ونيـل المنـى ∴ ولـذ العـيش وطيـب المـدام

ريحـان سـمعى، وسـنا مقلتـي ∴ وسـؤل قلبى من جميع الأنـام

لهفـى علـى مـا فـات مـن قربهـا ∴ لهفـا لـه فـى كـل عضـو سـقام

لهفـى علـى تلـك الطبـاع التـى ∴ قد خلصت من كل عيب وذام

لهفـى: وقـل اللهـف منـى لمـن ∴ كـان سـلوى عنـد كـل اهتمـام

لـم أدر فـى حبـى لهـا مـا الأسـى ∴ ولا تطعمـــت ألـــيم الغـــرام

ويجوز لنا هنا أن نقرن العزاء بالرثاء فهما من باب واحد، وهما فى الحادث الواحد: حادث الموت الذى لا يرد، إلا أن الرثاء مدح للميت وإشادة بمحاسنه، والعزاء تعزية لأهل الميت وسلوان لهم، ونجد فى شعر تميم بن المعز بعض قصائد التعزية، وإن كان ذلك قليلاً جداً فى ديوانه، ولعل أبرز تعازيه وأحقها بالإشارة إليها هى تعزيته لصديقه الحسين الرسى فى وفاة والده أبى إبراهيم إسماعيل بن أحمد الرسى، وكان شاعرنا قد تأخر- لوجع أصابه- عن المشاركة فى الصلاة على الفقيد، فلما عاتبه الحسين الرسى على ذلك الموقف رد عليه شاعرنا يقول:

يـا مـن صـفا ود صـدرى ∴ لـــه وســـرى وجهـــرى

ومـــن تكـــدر عنـــدى ∴ لرزئـــه صـــفو دهـــرى

مـا مـات ركنـك، لا، بـل ∴ ركنـى، وفخـرى، وذخـرى

لـو كنـت أملـك عمـرى ∴ وهبتـــه شـــطر عمـــرى

أو كنـت أسـتطيع دفعـا ∴ عنـــه بروحـــي ووفـــري

دافعـت عنـــه المنايـــا ∴ وكـــل فـــادح أمـــر

وقـل فـى واجـب الحـف ∴ ظ عنـــه دفعـــى ونصـــرى

مـــا كـــان إلا يمينـــي ∴ ومقلتـــــــــي، وأذرى

ـ الغزل:

يشـكل الغـزل- سـواء أكـان مسـتقلاً قائمـاً بذاتـه أم مفتتحـاً للقصائد توصلا إلى أغراض أخرى من القول- قسما لا بأس به من ديوان تميم بـن المعز. وقـد يقـال إن قسـماً كـبيراً مـن هـذا الغـزل مصنوع غير مطبـوع، وانـه آتـى بـه علـى سـبيل المحاكـاة للقـدماء، ولكـن لا شـك أن شـاعرنا كـان ذا طبـع غزلـي، ونفس محبـة، وكـان يعشـق المـرأة، ويهيم بها، ويعجب بمحاسنها ومفاتن جسدها، وأنه لم يجد إلا الشعر تعبيراً له عن تلك العاطفة.

والمرأة المصونة البخيلة بعواطفها وبنفسها هـى أحسـن بكـثير عنـد شـاعرنا مـن المـرأة الباذلـة المعطـاء، لأن المـرأة الضـنينة لا تسـوف فـى بـذل نفسها، على حين أن المرأة المعطية غير الممنعة هي شيء سهل المنال، وقد عبر شاعرنا عن هذه الفكرة بقوله فى التغزل فى مستهل قصيدته يفاخر بها العباسيين:

يعجبنـى البخـل إن بخلـت ولا ∴ يعجبنـى الجـود منـك والنفـل

فشـر فمـا الرجـال جـودهم ∴ وخير ما فى الكواعب البخل

وقد تغزل شاعرنا بالمرأة فى كل مكان.. كما فى البدو والحضر وفى الكوخ والقصر، بل تغزل بها فى الدير ما دامت تقدم له من اللذة كل ما يحب.

وهو فى نقداته مع المرأة لا يتورع أن يصف كل ما دار بينه وبينها، من قبل، وضم، وعناق، ولثم، وود، وما وراء ذلك مما لست أذكره، ففى غزلية له على شكل أرجوزة يقول فى صراحة وأدب مكشوف:

حتـى أبيـت بـين غيـد نهـد ∴ أرشـف شـهدا كامنـا فـى بـرد

ملتزمـاً هيـف الخصـور الميـد ∴ ما أنت يا ليلى سوى غصن ندى

تيسـر فـى غاصـن نقـى ملبـد ∴ وقمـر فـوق قضـيب أملـد أصـلد

تفتـرهن كـاللؤلؤ المتقـد ∴ صـيغ لهـا مـن عسـل مجمـد

فهـو متـى هـم بـذوب يبـرد ∴ والـثلج والنسـولا بـرده لـم يجمـد

وفـاتر الطـرف عليـل الموعـد ∴ أضـعف مـن لحظـي بـين العـود

يقتـل مـن يشـأ ولكـن لا يـدى ∴ يجـور فـى حكـم الهـوى ويعتـدى

يـا حبـذا قولتهـا: قـدك! أقصـد ∴ أذبتنـي بالضـم والتشـدد

يـا شـرهًا مـن قُلبـي ومـن يـدي ∴ يكفيـك مـا فـى الخلـد والمقلـد

وناهـد منتصـب مـل اليـد ∴ كتمـا كحسـو الطـائر المصـرد

لم تسر عينى مثل هذا المشهد ∴ مسـتعبد يعبـث بالمسـتعبد

وشاعرنا لا يبالى أن يتغزل بالمذكر كما يتغزل بالأنثى.. وما دام طالباً للمتعة فهو يلتمسها في الجنسين على حد سواء، وقد نزل بحانة مرة، وللغيم دموع لا تكف، فساقه القدر إلى خمارة من بنات الروم، فرحبت به وبصحبه، وقالت لهم: عندي ما تطلبون، : الفتاة الرود، والفتى الأمرد، والراح التي نفى عتقها طول قذاها:

فأفضى بنا الإدلاج بعد تعسف ∴ إلى زولة شمطاء منزلها رحب

مزنرة، أما أبوها فقيصر ∴ وحسبك ملك جده قيصر حسب

قيصرية، ديرية، هرقلية ∴ تقاصر منها الخطو، واحدودب اللب

وقالت لنا: أهلاً وسهلاً ومرحباً ∴ وقلّ منى البشاشة والرحب

من أنتم؟ فقلنا:عصبة من بنى البا ∴ دعاهم إليك القصف والعزف واللعب

فقالت: على اسم الله حطوا رحالكم ∴ فعندي الفتاة الرؤد والأمرد الرطب

وفى غزليات تميم تعقد الحبيبة مشابهة بينها وبين الأشياء لتظهر فضل استغلالها على كل مشبه به، فهى أحسن من السيف والرمح، لأن الرمح لا ردف له مثل ردفها، وليس فيه رمانتا نهد كرمانتى نهدها[1]. وهى أحسن من البدر ولا ترضى أن يشبهها صاحبنا بالبدر، لأن البدر لا يرنو بعين كعينها، ولا يبسم عن ثغر كثغرها:

شبهتها بالبدر فاستضحكت ∴ وقابلت قولي بالنكر

وسفهت قولي، وقالت: متى ∴ سمجتَ حتى صرتَ كالبدر؟

(1) انظر الديوان، ص 123.

البـــدر لا يرنـــو بعـــين كمـــا ∴ أرنـــو ولا يبســـم عـــن ثغـــر

ولا يمـيط المسـرط عـن ناهـد ∴ ولا يشـــد العقـــد فـــى نحـــر

مـن قـاس بالبدر صفاتي، فـلا ∴ زال أسـيراً فـي يـدى هجـرى!!

وهـو فـى لقاءاتـه مـع مـن يهوى مغـرم بالعنـاق والقبـل واللثم، وتعبـر أشـعاره فـى ذلـك عـن شـهوة عارمـة، حتـى ليكـاد هـو ومـن يحـب يتفانيـان بالعناق:

قبلـت مـن كنـت صـباً ∴ بـــه كثيبـــاً، معنـــى

فكـدت أفنيـه بالضـم ∴ والعنـــــاق وأفنـــــى

جنيـــت بـــاللثم منـــه ∴ مـا كـان باللحظ يُجنـى

وهو وحبيبه ضجيعان على غيظ العدو الكاشح:

وبتنا على غيظ العدو ورغمه ∴ ضجيعين نجنى الطيب من شجر القرب

وهو نائم مع حبيبه فى الفراش قريبين بلا إثم ولا فحش:

وبتنـــا مـــن تـــدانينا ∴ علـى أضيق مـن فتـر

مبيـت الصـائم الغرثـان ∴ وافـــى ليلـــة الفطـــر!

بـــلا بغـــى ولا إثـــم ∴ ولا فحـــش ولا نكـــر

وهو وحبيبته قد امتزجا فى العناق امتزاج الماء بالراح:

بتنـــا عناقـــاً ولثمـــاً ∴ وضـــم نحـــرٍ لنحـــر

وقد شفى الحب منا ∴ غليـل صـدر لصـدر

وقـد مزجنـا اعتناقـا ∴ مـــزاج مـــاء بخمـــر

ريقـــا بريـــق بـــرود ∴ عـــذباً وثغـــراً بثغـــر

معانقـا غصـن بـان ∴ ولاثمـاً ضـوء بـدر

ثم تهدى إليه الحبيبة تفاحة، فكأنما أرسلت إليه خدها بلونه وريق فمه:

لمـا تشكِت لـه الهـوى ∴ والشـوق نـام والجـوى زائـد

أرسـل فـى تفاحـة خـده ∴ إلـى كـي لا يفطـن الحاسـد

فلونـه فـي لونهـا ظـاهر ∴ وريقـه فـي طعمهـا جامـد.

وإذا كانت كل امرأة تستهوى شاعرنا تميم بن المعز، فإن المرأة ذات البشرة الصفراء العاجية كانت تستولى أكثر على لبه، وكل الألوان المألوفة فى جسم المرأة حبيبة إليه، إلا (الصفرة) فإنها تولهه:

رأيت فى البستان إنسانة ∴ صفراء، للألباب سلابة

والفتاة الصفراء التى تعلله بالراح الصفراء فى ظلام الليل هى أشهى إلى قلبه:

رب صفراء عللتني بصفر ∴ ء وجنح الظلام جون الإزار

والصفراء من النساء يحسبها محدثها ذهباً أصفر يكاد يجرى بضاضة:

وضعيفة الألحاظ ساحرة ∴ زادت لواحظها على السحر

صفراء يحسبها محدثها ∴ ذهباً يكاد بضاضة يجرى

ولعل أجمل ما فى غزل تميم الذى يتقدم به إلى أغراضه فى المدح والفخر وغيرها هو التخلص الحسن الجميل من الغزل والتشبيب إلى غرضه، بحيث يحس القارئ أن حبل الكلام موصول منسجم، وأنه ليس هناك فجوة فارغة أو هوة سحيقة بين المطلع والمخلص..

وهل هناك أجمل من هذا التخلص من الغزل إلى مدح والده المعز:

خذى الكأس يا مظلومة الخد مترا ∴ ومدى به نحوى بنانا مخضبا

فإنى سبقت الدهر للمجد والعلا ∴ وسدت جميع الناس شرقاً ومغا

ومـــا ذاك إلا أننـــي بســـعادتي ∴ غدوت قريباً من (معد) مقربا

ومعد هو والده المعز، ويدخل شاعرنا إلى مدح أبيه هذا المدخل الجميل، وهل هناك أرق من هذا التخلص من الغزل إلى مدح أخيه العزيز:

فللشوق فى الأكباد منهن رنة ∴ وللدمع فى روض الخدود كوب

سيشفين داء البعد بالقرب عاجلا ∴ ويعلمن أنا بالنجاح نؤب

وأن ظنون الناس إفك وباطل ∴ وظن أمير المؤمنين مصيب

أو أجمل من هذا التخلص من الغزل والخمر إلى مدح أخيه العزيز:

فبت أناجى البدر وهو منادمي ∴ واشرب باللثم والعقار من الشنب

إلى أن رأيت الصبح يفتك بالدجى ∴ كفتك (أبى المنصور) بالروم رب

أو هذا التخلص الحسن من الغزل إلى مدح العزيز:

لاندَّ فى الحسن لها مثلما ∴ أنى فى الحب بلا ند

لا زالـــت الجيـــزة معمـــورة ∴ بكل مخطوف الحشا نهد!

إنـى ألـذ العيش فيها بما ∴ أولى عزيز الدين من رفد

ولقد أجاز شاعرنا لنفسه- مع الأسف- أن يطلق العنان فى الإفحاش فى الغزل، عن طريق التصريح بذكر العورات والألفاظ الجنسية المثيرة، والأعضاء التى نستحى أن نسوق عليها الشواهد ويكفي الرجوع إلى الديوان لمن يريد طلب المزيد من البحث، وليرى فيها لوناً من الأدب المكشوف ما كنا نتوقعه من أمير من أبناء البيت الفاطمي.

ـ الخمر:

والخمر هنا عند الشاعر تميم بن المعز هى شطر الغزل وصنوه، وقد أكثر شاعرنا من وصفها والتغنى بها، ووصف مجالسها وندمانها وسقاتها، ومواقيت تعاطيها ما بين صبوح وغبوق، ووصف الحانات والخمارات والساقيات، وصفة الشرب ما بين صرف وممزوج، ولقد مزج تميم بين الخمر والغزل مزجاً يدل على تأصلهما فى نفسه، وبلوغهما من حسه، إلى حد أنه شبه حبيبته بالخمر فى قوله:

بالله يا مشبهة الخمر ∴ لونا ويا أضوأ من بدر !

ردى فؤادي حسبه بعض ما ∴ سقته عيناك من السحر

صنتك عن لحظي يا من غدت ∴ تكاد من رقتها تجرى

وقد أولع شاعرنا بالراح حتى كانت الحياة عنده قينة وخمرا وساقيا مليحا ليس غير، فهو لا يتطلب من الحياة أكثر من هذا، ويقول فى مجلس غناء ولهو:

قد اجتمع البستان والروض والخمر ∴ وحركت الأوتار وارتفع الزمر

فمالك لا تغدو إلى الراح غدوة ∴ يبيحك فيها كل ما تشتهى السكر؟

هل العيش إلا قينة ومدامة ∴ وساق مليح ليس يُعصى له أمر؟

ويقضى صاحبنا أيامه مع الندماء فى البساتين، وخاصة بساتينه هو، فيقول:

نحن من البستان فى نزهة ∴ ولفظنا مثل حلاه سوا

تذاكر يطفى غليل الجوي ∴ كأدمع المشتاق يوم النوى

ويعرج مع غلام جميل له على منزل خمارة ليشرب ويلهو، فيصف

ذلك بقوله:

زرنـــا بـــه منـــزل خمـــارة ∴ والليـل فـى صـبغ بريـاه

وقـد عـلا الأفـق هـلال بـدا ∴ كعطفـة الحاجـب محنـاه

حتى إذا الخمار أصغت إلى ∴ صحابنا فى المشي أدناه

قـام إلينـا عجـلا شـاغلا ∴ بـالراح يمنـاه، ويسـراه

فاسـتل مـن إبريقـه قهـوة ∴ أشـرق منهـا ليـل مغنـاه

وأوقات الشراب كلها عنده سواء، فهو يشرب الصبوح ويشرب الغبوق، ويشرب فى الليل وفى أي ساعة من النهار، ولكن الصبوح عنده أحسن، فهو يفضله على الغبوق، ويستشهد على ذلك بزهر اللينوفر – النيلوفر- الذى يفتتح مع انبساط النهار بأعين زرق وحمر ويغوص فى الليل تحت الماء وتنطبق أوراقه. ويقول فى ذلك:

فضل الصبوح على الغبوق مبين ∴ يقضـى بـذاك شـواهد اللينـوفر

يبـدو إذا انبسـط النهـار بـأعين ∴ زرق وحمر، كاختلاف الجوهر

ويغوص تحت الماء إن هم الدجى ∴ بـورود خـوف للرقيـب المبصـر

الصـد أشـبه بـالظلام وسـيفه ∴ والوصـل أشـبه بالنهـار الأنـور

فاشرب على صبحين: صبح مدامة ∴ وضحى، وإصباح الخدود الأزهر

وتدعوه نسمات الصباح المضمخة بعبير الرياض إلى الشراب صبحا، فيقول:

هزلـى للصـبوح صـبح تبـدى ∴ من خـلال الدجى كغرة طِرف(1)

(1) الطرف بكسر الطاء: الجواد الكريم.

ونسيم مضمخ بعبير الر ∴ وض يحيى من الخمار ويشفى

خذلته القوى وحركه الجو ∴ بلين من الهواء ولطف

فهو برد على جوى كل قلب ∴ وعبير يفوح فى كل أنف

كلما هب هب فينا نشاط ∴ وارتياح لكل عزف وقصف

ويفضل شاعرنا أن يشرب الراح صرفاً بلا مزج:

فبتنا نحث الكأس حثا وإننا ∴ لنشربها بالحث صرفاً ونستقى

ويقرر أن مزج الخمر بالماء لؤم ينافى الكرم، وأنها يجب أن تشرب صرفاً كما ولدتها الكروم بلا إضافة ماء:

مزجكما الخمر بالماء لُوم ∴ دعاها كما ولدتها الكروم

وحثا ولا تخشيا نشوتى ∴ فغيرى المسي عليها الملوم

ويصف لنا شكل الخمر حينما تمزج بالماء، فيعلو كأسها حبب كالدر، أو كأن الماء حين يضاف إليها يطربها فتبدى إذا مزجت به درا نثيرا، أو يغير الماء لونها فهى حمراء بدون مزج فإن شعشعت بالماء ولد القرع الماء فيها أصفرارا، ويشبه امتزاجه مع من يحب بامتزاج الخمر بالماء:

إذا احتثها الساقى الأغن حسبتها ∴ نجوم الثريا لحن فى راحة البدر

يولد فيها المزج درا منضدا ∴ كما كتبت فوق الثرى نقط القطر

كأن الماء يطربها فتبدى ∴ إذا مزجت به درا نثيرا

حمراء فى الكأس، فإن شعشعت ∴ ولد قرع الماء فيها اصفرار

وإنى لممزوج بحبك خلقة ∴ كما امتزجت بالماء فى كأسها الخمر

والخمر عنده على كل حال هى الخمر، يشربها صرفا وممزوجة، وإن كان يؤثر الصرف كما سلف القول، ولكنه لا يبالى بها ممزوجة:

فسقنى صرفا، وممزوجة ∴ وغننى بالله يا جنجنه!

وقد اشتهر تميم بالراح الجيدة المعتقة، حتى بات أملا لطلابها من دنه، ورجاء لقاصديه ومستهديه، وقد استهداه بعض بطانته فبعث بها إليه ومعه الأبيات التالية، وقد تعرض فيها للحلف بالمصحف فى مقام لا يليق بكتاب الله الكريم:

بعثتها من صرف راح قرقف ∴ كأنها ياقوتة فى شنف(1)

أو أرج فى قدح مستطرف ∴ يحلف من يشربها بالمصحف

بأنها لو لم تفح لم تعرف

وسأله بعض أصحابه مرة شراباً، فأرسله إليه ومعه أبيات يقول فيها:

قد بعثنا الراح عن عجل ∴ وحسمنا أحبل العلل

وتفاءلنا ببعثتها ∴ لك بعث الخيل والخول

وجعلناها مقدمة ∴ نقتضى الباقي من الأمل

ولأنت المستحق لها ∴ دون أبناء الرجاء- ولى

وكان شاعرنا يرى فى مجالس الشراب ملكا لا يعد له ملك كسرى وقيصر، ولذة لا تشابهها لذة افتضاض الأبكار.. كما قال مرة

(1) الشنف: القرط يعلق فى أعلى الأذن.

لصفيه الرسى:

ساعة من جنى حديثك ما بيـ ∴ ـن سماع الغنا وشرب العقار

ومعاطاتك الكئوس على رو ∴ ض المعاني ورقة الأفكار

هو عندي ألذ من ملك كسرى ∴ وافتضاض الكواعب الأبكار

وإذا كان تميم يجد فى الرياض والبساتين مجالس لهوه وقصفه وشرابه، فإنه كان يجد فى الأديرة متاع نفسه، وقضاء لذاته، وكثيرة هى الأديرة المصرية التى كان يتردد عليها، ويأوي إليها، وينشد اللذات عندها، وله فى "دير القصير" أبيات يصرح فيها بأنه ساعد إبليس على المعاصي، وأن اللذات لا يهجرها إلا مسوف، ولا يتركها إلا امرؤ منحوس:

عمرت المغاني واجتنبت النواويس ∴ وساعدت فى الدير القصيرى إبليا

وهل يهجر اللذات إلا مسوف ∴ ويتركها إلا امرؤ بات منحوسا؟

ربيّ عظمتهن النصارى.. ولم أزل ∴ أعرس باللذات فيهن تعريسا

وظل تميم حياته كلها فى السبع والثلاثين سنة التى عاشها عاكفاً على مجالس الشراب واللهو، ويصادفنا نص شعرى فى ديوانه يدل على أنه حين بلغ الخامسة والثلاثين من عمره قد راجع عقله، وآثر الوقار، وأطاع صالح الأعمال بعد أن أطاع فى الشباب دواعى الشباب. وإذا صح هذا الكلام فمعناه أنه قضى العامين الأخيرين من حياته تائباً نادماً على ما فات، ولعل شعر الزهد الذى سجله فى ديوانه هو من الشعر الذى قاله فى تلك الفترة التى ختم بها عمره، ويكون شأنه فى هذا الشأن جميع العصاة الذين يتوبون فى النهاية توبة نصوحا، ولكن شاعرنا قد مات فى

مفتتح الكهولة، فى سن السابعة والثلاثين، ومعنى هذا أنه مات غير كبير السن، فهل مات فجأة، أم أقدم على التوبة والزهد حين أحس بأنه قريب من القدوم على ربه؟ الحق أن شاعرنا كان كثير المرض والعلل، وطالما اعتذر عن حضور مجالس أخيه العزيز لمرضه، ولا نعلم حقيقة المرض الذى انتابه، ولكنا نستنتج أن وفاته فى سن السابعة والثلاثين كان نتيجة لهذه الأمراض.

والقصيدة التى نظمها لأخيه العزيز وهو فى الخامسة والثلاثين من عمره، والتى يصرح فيها بندمه على ما سلف من المعاصى، ويصمم على الطاعة يقول فيها:

ما زلت أخلع فى ريح الصبا رسنى ∴ لهوا وأسحب فيه ربطة الغزل
فالآن لما قضت نفسى مآربها ∴ ونلت من كل شىء غاية الأمل
أقصرت يا سلم عما تعلمين، فما ∴ أصبو لربع، ولا أبكى على طلل
لما بلغت أشدى بعدما انقرضت ∴ بعد الثلاثين خمس من زمان
راجعت حلمى وآثرت الوقار ومن ∴ يحلم يوقر، ومن يستحى ينتضل
كما أطعت شبابى فى الصبا، فكذا ∴ أطيع فى صالح الأعمال مكتهل
يا شهر مفترض الصوم الذى خلصت ∴ فيه الضمائر بالإخلاص والعمل
أرمضت يا رمضان السيئات لنا ∴ بشربنا للتقى علاً على نهل
صوم وبر ونسك فيك متصل ∴ بصالح وخشوع غير منفصل
يا ليت شهرك حول غير منقطع ∴ وليت ظلك عنا غير منتقل

وبهذه الأبيات الجميلة، والتوبة الخاشعة نختم حديثنا عن الخمر واللهو والقصف فى شعر تميم بن المعز، قبل الله توبته، وغفر له.

ـ الوصف:

كان للشاعر تميم بن المعز عين باصرة لا تقع على شيء إلا أدركته ونفذت إليه واستمتعت به، وحس مرهف يستجيب للعين حين تقع على الأشياء، وكان يصف وصفاً أصيلاً أو عارضاً، فقد يتصدى من أول الأمر لوصف منظر طبيعي، أو مشهد صناعي، أو آلة، أو إنسان، أو حيوان، وقد يأتي الوصف في شعره عرضاً لا أصالة. فمن أوصافه العارضة ما ذكره في أثناء مدحه لأخيه العزيز واستئذانه إياه في المصير إليه بالجيزة في أحد قصوره هناك. وفي خلال الحديث إلى أخيه أخذ يصف الروضة ونسيمها وجداولها وأزهارها وثمارها، قائلاً:

في جنة قد ذللت ثمراتها ∴ وتسربلت بغلائل من نور

وجرى النسيم على ثمار غصونها ∴ فتضوعت بالمسك والكافور

ينساب في الأكناف منها جدول ∴ كالنص أو كالحية المذعور

ما بين أترج يلوح.. كأنه ∴ كبرى الثدي الصفر فوق صدور

وكأن نرجسه إذا استقبلته ∴ يرنو بأجفان العيون الحور

وكأنما النارنج في أغصانه ∴ أكر تروت من دم اليعفور

وكأنما نشر الربيع ملاحفاً ∴ فيها مريشة من المنثور

وكأن سوسنها خدود قد بدت ∴ للثم فيها زرقة التأثير..

وقد أكثر تميم من وصف الرياض والأزهار والثمار، ويشترك معه في هذا شاعران مصريان آخران قريبان من عهده هما: ابن وكيع التنيسي، والشريف العقيلي، وكثيراً ما نجد الورد والشقائق والنرجس

والنيلوفر والأترج والموز والخوخ والتفاح متناثراً مبعثراً فى ديوان الشاعر تميم، فنحس أننا نجوس خلال روضة أو بستان مزهر، وما مر شاعرنا بروض إلا وقف أمامه أو وقف به، ووصفه، وحل فيه:

انظر لتفويف الرياض وحسنها ∴ قد نمقته يد السحاب والمطر

بسط تخالف صبغها ونسيجها ∴ ما بين أصفر كالعقيق وأخضر

يجمعن حسن المنظر الزاهى الذى ∴ راق العيون إلى كريم المخبر

فكأن نرجسها عيون أبرزت ∴ أجفانها لكنها لم تنظر

وشقائق كست الربى من نسجها ∴ حللا كتضريج الخدود الأحمر

متبرجات ناعمات أكملت ∴ خفر الذليل ونخوة المتكبر

وغلائل زرق نشرن كأنها ∴ آثار تجيش الصدور النضر..!

ولا مر شاعرنا بناعورة تسقى الرياض والحقول إلا وقف بها ووصفها:

ناعورة أنت أنين الهوى ∴ لما شكت حر وساويسها

أنينها صرة تدويرها ∴ ودمعها ماء قواديسها

كإنما الكيزان فى بئرها ∴ هام ملوك فو نواويسها

تقذف بالماء إلى روضة ∴ كأنها ريش طواويسها

وقد وصف شاعرنا الليل والصبح فى طلوعه وطرده لجيوش الليل:

وانظر إلى الليل كالزنجى منهزماً ∴ والصبح فى إثره يعدو بأشهبه

ووصف (القرافة)، وقد لفها الخشوع والصمت، ونبه الأذان فيها النيام، ووصف (بركة الحبش) المشهورة التى وصفها شعراء من أمثال أبى الصلت أمية ابن عبد العزيز الأندلسى، وظافر الحداد الإسكندرى المصرى

وغيرهما، فقال:

كـأن البركـة الغنـا إذا مـا ∴ غـدت بالمـاء مفعمـة تمـوج

وقد لاح الضحى، مرآة قين ∴ قد انصقلت ومقبضها، الخليج

وأجاد شاعرنا فى الوصف للأشياء الطبيعية صفة (الفرس)، وفى باب النماذج شىء منه، كما أجاد صفة المرأة، أما صفته للأشياء المصنوعة فقد أدارها على ما وقعت عليه عيناه من وصف عود الغناء الذى كان ملازماً له وقاعاً تحت سمعه وبصره، ووصف الشمعة التى كانت توقد دائماً على مائدة الشراب وتظل صاحية، بينما ينعس الناس، ويجلس العبيد وهى قائمة واقفة لا تجلس.

وفاتقة ظلمة الحندس ∴ إذا نعس الناس لم تنعس

متوجة فوق يافوخها ∴ بتاج من اللهب المشمس

إذا أوقدت نثرها أدمعا ∴ عليه من الذهب الأملس

وإن نام جلاسها لم تنم ∴ وإن جلس العبد لم تجلس

ولم أر أكرم من طبعها ∴ تجود على الشرب بالأنفس..

ـ الشكوى:

ويخيل إلينا أن شاعراً أميراً مترفاً كتميم بن المعز لا تجد الشكوى سبيلاً إلى شعره، ولا مدخلاً إلى ديوانه، ولكن من هو الشخص الذى خلا من هموم الحياة، وخلص من آلامها؟ أليست الحالة النفسية لتميم بحرمانه من الخلافة وصرفه عن ولاية العهد سبباً كمينا لشكواه، ولو أنه رضى فى نهاية المطاف بحظه من الحرمان وتظاهر

بالقناعة والقبول؟ وهب أنه سكن إلى حكم الله بحرمانه من الولاية والخلافة، أفهل سلم من قريب يحسده، أو كاشح يحقد عليه، أو عدو يتربص به. والمرء محسود حتى على موته، كما قال شاعر قديم. لهذا لا نعجب إذا سمعنا تميماً يقول:

رضيت بحكم سابقة القضاء ∴ وإن أضحت تكدر صفو ما بى
وهل يستطيع أهل الأرض حلا ∴ لعقد شد من فوق السماء؟
إلى كم تهدم الأحداث ركنى ∴ وترمينى بجور واعتداء؟
يعاقبنى الزمان بغير ذنب ∴ وتخذلنى يدى وذوو اصطفائى
حياتى بين واش أو حسود ∴ وساع بى يسر بطول دائى

وإذا لم يجد شاعرنا شيئاً يشكو منه، فلا أقل من أن يشكو فراق أحبابه، وبعد أحبته عنه، وهى من شكاة تصاحب ما قاله فى الدهر من شكايات:

أمرَّت لي الأيام منذ عرفتها ∴ فما فى فمي منهن إلا العلاقم
جعلتك قلبى خير خدن وصاحب ∴ فلاتك ممن يلتوى ويصارم
فما إن رأيت الدهر إلا معظما ∴ كريماً يناوى أو وضيعاً يسالم
وما فاتنى فيه من المجد والغنى ∴ فما أنا إذ نلت الحجى فيه نادم
وما إن قليت الدهر إلا لأنه ∴ لقلبى من بين الأحبة ظالم
سقاني من أقذائه بفراقهم ∴ ومن سمه ما ليس تسقى الأراقم

وحين يضطر شاعرنا إلى الشكوى اضطراراً، فإنه -شأن الكريم- يتجمل بالصبر، يظهر الابتسام تجملاً وتصبرا، وإن كان به ما يبكى أقله العيون:

صبرت عن الشكوى حياء وعفة ∴ وهل يشتكى لدغ الأراقم أرقم

وبي كل ما يُبكى العيون أقله ∴ وإن كنت منه دائماً أبتسم

وتلفت نظرنا فى شكوى تميم ظاهرة التشكي فى شعره ومدائحه التى يخاطب بها أخاه الخليفة العزيز بالله، وهى شكوى تحمل دلالة نفسية على تألمه باطناً من الوضع الذى حرمه من الخلافة وأعطاها أخاه العزيز، وقد يكون شاعرنا غير لبق ولا موفق فى اتخاذ هذا الموقف، ولكنه معذور حين يجد نفسه مضطراً إليه فيقول:

أعلل نفسى بالأمانى تجلداً ∴ وأوهمها أن النزاهة فى العدم

صبرت على الأحداث حتى أذبتنى ∴ وحتى انتهت سكينهن إلى العظم

ولم يلق مخلوق من الدهر مثلما ∴ لقيت من الأرزاء والجور فى الحكم

فما عنفت غيرى الخطوب بجورها ∴ ولا ظلمت أحداثها أحداً ظلمى

أرونى مريض القلب مثلى والمنى ∴ عليل الغنى والحال والحظ والجسم!

لا شك أن مصدر الشكوى فى شعر تميم بن المعز هو الحالة النفسية التى أصابته بحرمانه من الولاية والخلافة والنفوذ والسلطان والأمر والنهى، فهو رجل مهدم الآمال محطم المنى يعيش على هامش الحياة بعد أن كان مرشحاً للعيش على قمتها وفى الصميم، وهو فى الوقت نفسه رجل عليل، هدف فى كل لحظة للعلل والأمراض التى تعوقه حتى عن المشاركات التى يفرضها عليه مكانه كأخ للخليفة (القائم على عرش البلاد)[1].

(1) راجع ص 19 وما بعدها من كتاب مصر الشاعرة.

* * *

الحياة الأدبية في العصر الأيوبي

[567هـ 648هـ]

إذا انتقلنا للعصر الأيوبي نجد أن النهضة الأدبية في هذا العصر تستمر، فهذا صلاح الدين أول سلاطينهم يرفع من مكانة الأدب ويرى أن ملكه إنما قام عليه فيقول في ملأ من الناس: لا تظنوا أني فتحت البلاد بسيوفكم ولكني فتحتها بقلم القاضي الفاضل[1].

ومن المعلوم أن القاضي الفاضل كان من أعظم كتاب صلاح الدين الأيوبي وأكثرهم قرباً إليه.

وهناك من الأخبار ما يدل على أن صلاح الدين كان يحب الشعر. فقد كان يعجب بديوان أسامة بن منقذ من الشعراء المعاصرين له. وكان شغوفاً به[2] وكذلك كان يضمن رسائله شيئاً من الشعر.

وإذا ما تركنا صلاح الدين وجدنا بقية الأيوبيين يماثلونه في نظرته إلى الشعر بل نجد من الأحداث التي تقع منهم ما يذكرنا بأحداث عربية قديمة وقعت لعرب خُلّص ويذكر ابن الأثير أن منهم من كان يتمثل في بعض المواقف بأمراء أو حكام سابقين كان للشعر عليهم سلطان[3].

وهناك يدل على أن حكام هذه الفترة قد استخدموا الشعر في

---

(1) شذرات الذهب لابن العماد ج327/4، طبعة القدس سنة 1351هـ.
(2) الروضة لأبي بشامة المقدسي ج247/1، طبعة دار الجيل - بيروت0
(3) الكامل لابن الأثير ج147/9، طبعة الاستقامة القاهرة0

حث الناس على المشاركة في قتال الصليبيين وعلى الاستبسال في المواقع التي اشتبكوا فيها وقد قيل ذلك عن صلاح الدين وغيره من سلاطين الدولة الأيوبية.

وهناك الكثير من الدلائل على أن الأيوبيين قد أقبلوا على الأدب وتذوقوه وتشجعوا عليه فقد تلقى معظمهم ثقافة عربية على شيء كبير من الاتساع قربت بينهم وبين الحسب والذوق العربي. وهيأت لهم مزاجاً قريباً من المزاج العربي، بل إن بعضهم تعمق في الثقافة العربية مثل الملك الأفضل علي بن يوسف صلاح الدين الذي قيل عنه "كان عنده علم وأدب، وكان يكتب خطاً حسناً... وله شعر"[1].

وسوف نسوق في الصفحات التالية نماذج أدبية لشعراء وكتاب الدولة الأيوبية ونقف عن بعضها وقفة طويلة متأنية.

أولاً- الشعـــــر:

(1) قال ابن الفارض الصوفيّ من قصيدة:[2]

أبــــقِ مُقْلَـــةٌ لَعَلَـــيَ يَوْمـــا ∴ قبـلَ مَـوْتي أَرَى بهـا مَـن رآكـا
أَيْـن منـى مارُمتُ؟هياتَ!بـل أي ∴ نَ لِعْيِنِـي بـاللحظ لَـثم ثَراكـا؟
وبَشـيري لـو جـاءَ منـك بعَطْـفٍ ∴ ووُجُودي في قَبْضَتي قُلتُ:هاكا!
قد كفى ما جرى دمًا مِن جُفونٍ ∴ لِيَ قَرْحَىَ! فهل جَرَى ما كفاكا؟
فَـأَجِرْ مِـن قِـلاكَ فِيـكَ مُعَنّـى ∴ قَبْـلَ أن يُعـرَفَ الهـوىَ يَهواكـا
بأنْكسـاري يِـذِلّتي بِخضـوعي ∴ بِافتقـاري بِفـاقَتِي لغِناكـا
لا تَكِلْنـي إلـى قـوَيَ جَلَـدٍ خـا ∴ نَ؛ فـإني أَصبحْتُ مـن ضـعفاكا

---

(1) وفيات الأعيان لابن خلكان ج20/3.
(2) هو أبو حفص عمر بن علي بن مرشد أحد كبار الصوفية وأبلغ شعرائها وأولعهم بالجناس وأنواع البديع، ولد بالقاهرة ومات بها وله ديوان شعر مشروح، وأصل آبائه من حماة توفى سنة 632هـ.

كنتَ تجفُو، وكانَ لِي بعضُ صَبْر ∴ أحسنَ الله في آصطِبارِي عَزَاكا!
كم صدودٍ عَساكَ ترحَمُ شَكْوا ∴ يَ، ولو باستماع قوْلي: عساكا!
شَنَّعَ المُرْجِفون عنك بِهَجْري ∴ وأشاعوا أنّي سَلَوْتُ هَواكا
ما بِأحْشائهم عشِقْتُ ؛ فأسْلُو ∴ عنك يوما. دَعْ يَهجروا! حاشاكا!
كيف أَسْلو؟ ومُقْلَتِي كلّما لاَ ∴ حَ بَرِيقٌ تَلَفَّتتْ لِلِقاكا
كلُّ مِنْ في حِماك يهواكَ لكن ∴ أنا وَحْدِي بكلّ مَن في حماكا[1]

(2) وقال ابن مطروح:[2]

بعد ما كسر الملكُ المعظم توران شاه بن الملك الصالح جيوش ملك الفرنسيس لويس التاسع واعتقل بدار ابن لقمان بالمنصورة، وقُيِّد بقيد من ذهب، ووكل به خادمٌ يسمى صبيحاً؛ حتى فدى نفسه. ثم شاعت الأخبار أنه سيكرّ على مصر فقال يهدّده:

قُلْ للفَرَنْسِيس إذا جئتَه ∴ مقالَ صِدْقٍ من قَول فصيح[3]
آجَرَكَ اللهُ على ما مضى ∴ من قَتْلِ عُبّادِ يسوعَ المسيحْ[4]
قد جِئْتَ مَصرًا تبتغي أَخْذَها ∴ تحسَب أنّ الزَّمْرَ - يا طَبْلُ - رِيحْ
فَسَاقَكَ الحَيْنُ إلى أَدْهَمٍ ∴ ضاقَ به عن ناظِرَيْكَ الفسيح[5]
رُحْتَ، وأصحابُك أودعْتَهم ∴ بِقُبح أفعالِكَ بَطْنَ الضَّريح
خمسون ألفاً لا يُرَى منهم ∴ إلاّ قتيلٌ أو أسيرُ جريح
فَرَّكَ اللهُ إلى مثلِها! ∴ لَعلَّ عِيسَى منكُم يستريح!

---

(1) راجع المنتخب من أدب العرب ج1/175 : 176.
(2) هو جمال الدين يحيى بن عيسى الشهير بابن مطروح، وهو من أهل الصعيد الأعلى ولد بأسيوط ونشأ بقوص وتقلبت به الأحوال؛ فخدم الملك الصالح نجم الدين أيوب مدّة ولايته، ثم اعتزل الخدمة بعد موته حتى مات سنة 649هـ.
(3) يريد بالفرنسيس لويس نفسه.
(4) هذا يمثل روح العداء الذي كان سائداً في الحروب الصليبية بين النصرانية والإسلام0
(5) الحين: قدر الموت والهلاك، والأدهم: القيد الحديد، ولكن لويس قيدوه على ما قيل بقيد من ذهب.

إن كـان بَابَـاكُم بـذا راضِـيًا ∴ فُربـاً! غَـبْنٍ أَتَـى مِـن نصـيح
فاتَّخِـذوهُ كاهِنـا؛ إنـه ∴ أنصـحُ مـن شِـقَّ لكـم أو سَـطيح[1]
وقُـلْ لهـم إن أَضْـمَرُوا عـوْدَةً ∴ لأَخْـذ ثـارٍ أو لِقَصْـدٍ صـحيح:
دارُ ابـن لُقْمـان علـى عَهْـدها ∴ والقيـدُ بـاقٍ، والطَّوَاشِـي صَـبيح[2](*)

(3) وقال البهاء زهير: [3]

لا تَعتِب الدهرَ فـي حالٍ رماكَ بـه ∴ إنِ اسْـتردَّ فقِـدْما طـال مـا وَهَبـا
حاسِبْ زمانِـك فـي حَـالَيْ تَصَرُّفِه ∴ تَجِدْهُ أَعْطاكَ أضعافَ الذي سَلبا
واللهُ قـد جعـلَ الأيـامَ دائـرةً ∴ فـلا تَـرَى راحـةً تَبقَـى ولا تَعَبـا
ورأسُ مالِكَ وهْيَ الرُّوحُ قد سَلِمَتْ ∴ لا تأسَـفَنَّ لشـيءٍ بعـدَها ذَهَبـا
ورُبَّ مـالٍ نمـا مـن بَعـد مَرْزِئَـة ∴ أما ترى الشَّمْعَ بعد القَطِّ مُلْتهِبا(*)

ثانيا- النـــــــثر:

(1) وللقاضي الفاضل يصف فيضان النيل[4]

من رسالة قال: وأما النيل فقد ملأ البقاع، وانتقل من الإصبع إلى الذراع، وكأنما غَارَ[5] على الأرض فغطّاها، وعَارَ[6] عليها فاستقْعَدَها وما تخطّاها[1]، فما يوجد بمصر قاطعُ طريق[2] سواه، ولا مرغوبٌ

---

(1) فاتخذوه أي البابا المقدّم ذكره، وشق وسطيح كاهنان من كهان العرب في جاهليتها كانا يتبنّان بالغيوب فيما يزعم المؤرخون0
(2) وابن لقمان هذا هو احد رؤساء الكتاب زمن الصالح وبعده، والدار التي سجن بها لويس لا تزال منها بقية في المنصورة0
(*) راجع المنتخب من أدب العرب ج1/176 : 177.
(3) هو بهاء الدين زهير بن محمد المهلبي شاعر الدولة الأيوبية وأرق المصريين شعراً. ولد بقرب مكة، ونشأ بقوص من صعيد مصر، وتقلبت به الأحوال إلى أن خدم الملك الصالح أيوب فكان أشبه بوزير له وبعد موت الصالح انقطع البهاء بداره حتى مات سنة 656هـ وله ديوان شعر مشهور يتضمن كثيراً من السهل الممتنع وخاصة شعر الغزل0
(*) راجع المنتخب من أدب العرب ج1/177.
(4) هو أبو علي عبد الرحيم البيساني اللخمي رئيس ديوان الإنشاء في آخر الدولة الفاطمية، وفي أيام صلاح الدين وابنه العزيز، وكان معهما أشبه بالوزير وهو صاحب الطريقة الفاضلية في الإنشاء التي أساسها التورية والجناس والطباق، وتوفي سنة 596هـ.
(5) من الغيرة والغور ففيه تورية.
(6) عار الرجل: تردّد وذهب وعاد. أي أنه يذهب ويجيء إليها ويتردّد: كالرجل يذهب إلى عمله ويعود إلى قعيدة بيته0
(1) أي لم يجاوزها إلى غيرها كالرجل يكتفي بزوجه0

مرهوب إلا إيّاه.

وله أيضاً: من أخرى يصف محاصرة جيش صلاح الدين بيت المقدس وفتحه " زَاولَ المدينةَ من جانب، فإذا هو أوْديةٌ عميقة، ولُجَجٌ وَعْرٍ غريقة[3]، وسُورٌ قد انعطفَ عَطْفَ السِّوَار، وبُروُجٌ قد نزلتْ مكانَ الواسطة من عِقْد الدار[4]. وَقَدَّم المناجيق التي تَتَولّى عَقابَ الحصونِ عَصِيُّها وحِبالُها، وأَوْتَرَ لَهُمْ قِيسَّها التي تَضْرِبُ ولا تُفَارِق سِهامَها ولا سِهامَها نِصالُها، فصافحت السورَ فإذا سِهامُها في ثَنايا شُرُفاتها[5] سِواك، وَقَدَّمَ النَّصْرُ بُشْرَى من المنجنيق تُخْلِدُ إخلادَه إلى الأرض[6] وتَعْلُو عُلُوَّه إلى السَّماك، فشجَّ مَرابعَ أَبراجها، وأَسمعَ صوتَ عجيجها وَرَفَعَ مُثارَ عَجاجِها، وأسفر النَّقّابُ عن الخرابِ النِّقابَ، وأعادَ الحَجَر إلى خِلْقته الأَولى من التُّراب، ومَضَغَ سَرْد حجارتِه بأنياب مِعْوَلِه، وأظهرَ من صِناعته الكثيفة ما يَدُلُّ على لَطافِة أَنْمُلِه، وأَسمَعَ الصخْرةَ الشريفةَ أَنينه[7] إلى أن كادت تَرِقُّ لَمَقْتَلِه "(*)

(2) فصل من النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية:

للقاضي بها الدين بن شدّاد المتوفى سنة 632هـ، وكان من خاصة صلاح الدين بن أيوب وملازمي ركابه.

ـ قصة الرضيع:

---

(2) في قاطع الطريق تورية.
(3) أي أنه كان يحيط بالبلد خندق وعر الحجارة أغرق بالماء0
(4) شبه السور بالعقد، والأبراج بالواسطة0
(5) أي شرفات الحصون0
(6) أخلد إلى الأرض: نزل وأقام، وأخلد إلى الشيء : مال إليه0
(7) أي أنين الحجر الذي أعاده النقاب إلى خلقته الأولى من التراب أي نسفه وصحقه0
(*) راجع المنتخب من أدب العرب ج182/1 : 183.

"وذلك أنه كان للمسلمين لُصوصٌ يَدْخلون إلى خِيام العَدُوّ، فيَسْرِقُون منهم الرجالَ، وكان من قِصَّتهم أَنهم أخَذوا ذَاتَ ليلةٍ طِفْلا رضيعا له ثلاثة أشهر، وساروا به حتى آتوْا إلى خيمة السلطان، وعرضوه عليه، وكان كلُّ ما يأخذونه يعرضونه عليه ويعطيهم ما أخذوه، ولما فقدتْه أمه باتَتْ مُستغيثةً بالويل والثُّبور طولَ الليل؛ حتى وصل خبرهُا إلى ملوكهم، فقالوا: إنه رحيم القلب، وقد أذنّا لكِ بالخروج، فأُخرجي واطلبيه منه، فإنه يردُّه عليك، فخرجتْ تستغيث إلى اليَزَك، فأخبرتْهم بواقعتها، فأطلقوها وأنقذوها إلى السلطان، فلقيتْه وهو راكب، وأنا في خدمته، وفي خدمته خلق عظيم، فبكتْ بكاءً شديداً، ومرّغتْ وجهَهَا في التراب، فسأل عن قصتها، فأخبروه، فرقَّ لها، ودمعَتْ عينُه، وأمَرَ بإحضار الرضيع، فوجدوه قد بيع في السوق، فارتَّده، وأمر بدفع ثمنه إلى المشتري وأَخذه منه، ولم يزل واقِفًا حتى أحضر الطفل وسلم إليها، فأخذته وبكت بكاء شديداً، وضمته إلى صدرها، والناس ينُظرون إليها ويبكون، وأنا واقف في جملتهم، فأرضعتْه ساعة، ثم أمر لها، فحملت على فرس وأُلحقتْ بعسكرهم مع طفلها، فانظر إلى هذه الرحمة الشاملة لجنس البَشر.

اللهم إنك خلقته رحيماً فارحمه رحمةً واسعة من عندك ياذا الجلال والإكرام! وانظر إلى شَهادة الأعداء له بالرأفة والكرم.

ومليحة شَهِدتْ لها ضَراتُها ∴ والحسنُ ليس لحقه من مُنكر(*)

❖❖❖

(*) راجع المنتخب من أدب العرب ج184/1 : 185.

من شعراء الدولة الأيوبية

الشاعر: ابن سناء الملك

[550هـ 608هـ]

(1) حياته ونشأته:

هو أبو القاسم هبة الله بن القاضي الرشيد أبي الفضل جعفر بن المعتمد سناء المُلك. الملقب بالقاضي السعيد والمعروف بابن سناء المُلك. شاعر مفتن أول من أدخل فن الموشحات إلى الشرق.

عدّه الدكتور شوقي ضيف أنبه شاعر أنجبته مصر حتى عصره- وهو أحد القلائل المعدودين من الشعراء في العصر الأيوبي. ويُعد شعره مصدراً هاماً من المصادر الأدبية في هذه الفترة. وقد كان أغزر الشعراء إنتاجاً وأقربهم منزلة من القاضي الفاضل الذي أعجب به وكان له دور مهم في توجيهه خاصة في المراحل الأولى من إنتاجه الشعري.

ولد بالقاهرة أو بضواحيها في حدود سنة 550هـ/1150م. ونشأ وافر السعادة في أسرة غنية تميزت بالجاه والعلم والثقافة وقد أثرت تلك النشأة في شخصيته الأدبية التي أثرتها ثقافته العربية الأصيلة. وموهبته الشعرية. فقد اعتنى أبوه بتعليمه وتثقيفه.

فحفظ القرآن الكريم على يد القارئ الشريف الخطيب. وأخذ الحديث من الحافظ أبي ظاهر أحمد بن أحمد السلفي الأصبهاني.

ودرس اللغة والنحو في حلقات ابن بري[1].

وقد أفادته مخالطة هؤلاء العلماء فبرع في العلوم الدينية واللغوية والأدبية. وتعلم الفارسية وظهر أثر ذلك في خرجات موشحاته كما ظهر أثر الثقافة الفلسفية في شعره الذي تميز بعمق الفكرة وابتكار الخيال. ولابن سيناء المُلك ديوان ضخم يبلغ عدد أبياته ثمانية آلاف بيت حققه محمد إبراهيم نصر. وقد أشاد ابن سعيد في كتاب: "النجوم الزاهرة في حلى حضرة القاهرة"[2].

في القسم الخاص بالقاهرة من كتاب "المُغرب في حلى المغرب" الذي حققه الدكتور حسين نصار. أشار إلى تمييز أسلوبه الشعري. وتقدمه في طريقة الغوص على المعاني الرفيعة وقال عنه ابن سعيد: "وامتد طلقه في ميدان الإحسان امتداد عمره فلم يكن منه بالقاهرة فرسا رهان بل ظهر سابقا في حَلبته وأئمة الشعر خلفه. وشاهده ما أنشده له" ويستند هذا الحكم النقدي الموضوعي لابن سعيد إلى ما تميز به هذا الشعر من مميزات فاق بها ابن سناء المُلك غيره من الشعراء.

وقد انعكست في شعره صوره زاخرة بتجارب حياته الحافلة بألوان الحركة والنشاط. وضروب من الجد واللهو مما أثرى شعره. وجعله تعبيراً نابضاً بالروح الإنساني والتعبير الفني الذي يسم شخصيته شاعراً مصرياً صميماً أحب وطنه مصر. ولم يستطع مفارقته. إذ ولد وعاش ومات فيه.

---

(1) حسن المحاضرة للسيوطي ج200/1، 207، 283.
(2) دار الطراز في عمل الموشحات لابن سناء المُلك ج9 " المقدمة. الهيئة العامة لقصور الثقافة.

وقد حفل شعر ابن سناء المُلك بارتباطه الوثيق بذاته وبوطنه وبأحوال مجتمعه ولغة عصره وذوقه الأدبي. إضافة إلى ارتباط شعره بأهم الوقائع السياسية في تاريخ العصر الأيوبي وهي الحروب الصليبية خاصة فيما يتعلق منها بجهد صلاح الدين الأيوبي لاسترداد الكرامة والعزة العربية، وتحرير بيت المقدس من براثن الصليبيين في موقعة حطين سنة 583هـ.

وقد تولى ابن سناء الملك أعمال القاضي الفاضل في مصر بعد عودته إليها وعجزه عن مفارقتها. وهذا يدل على كفاءته وثقة القاضي الفاضل فيه وقد أولاه هذه الوظيفة الرسمية العظيمة التي أكسبته ثراء واستقراراً ومجداً إضافة إلى شهرته الشعرية ونشاطه الأدبي فقد كان ابن سناء الملك يعقد المجالس الأدبية في بيته لمطارحة الشعر والاستماع إلى النوادر والفكاهات. وكانت داره بمثابة المنتدى عامرة بهذه المجالس.

وكان يعيش حياة مترفة في هذه الدار التي تطل على النيل وتزداد بالزهور وكان يجتمع فيها بأصدقائه وبأدباء عصره حيث يتبادلون الحوار حول قضايا الأدب. وقضايا الحياة، . ويمزحون في هذا الحوار بين الجد والهزل كما هي السمة التي تتسم بها الشخصية المصرية الأصلية.

وكان لابن سناء الملك إسهامه في الحركة الأدبية التي دارت حول الحروب الصليبية وشكلت أهم المعالم الفنية للأدب المصري في العصر الأيوبي، إذ سجل هذا الأدب مراحل الانكسار أمام الهجمات البربرية للصليبيين واحتلالهم لبيت المقدس، وقتلهم للأطفال والنساء

والشيوخ وإهلاكهم للحرث والنسل مما أوجد تياراً قوياً من الشعر الديني المصري يستغيث فيه الشعراء بالله ويضرعون إليه أملاً في الفرج والنصر على الأعداء ويتوسلون إليه بالرسول محمد ﷺ شفيعاً لإقالة العثرات وانكشاف الملمات ودحر الصليبيين.

وقدمت مصر أكبر شاعر في المديح النبوي في الأدب العربي وهو الإمام البوصيري كما قدمت أكبر شاعر مصري صوفي وهو ابن الفارض سلطان العاشقين.

وازدهر هذا التيار الديني في الأدب المصري في عصر الحروب الصليبية مستمداً جذوره من الإيمان العميق بالله وحب الرسول ﷺ وآل بيته. مما تتسم به الروح المصرية من حب راسخ للدين واحترام للعقيدة.

وقد تغنى الشعراء بالانتصار العظيم الذي حققه صلاح الدين في موقعة حطين. مصورين صلاح الدين رمزاً للبطولة والعزة العربية. وقد تناول الدكتور عبد اللطيف حمزة هذا الأدب الذي ارتبط بالحروب الصليبية في كتاب "أدب الحروب الصليبية" مؤكداً خصوصية هذا الأدب.

كما تناوله الدكتور أحمد بدوي في كتابه "الحياة الأدبية في عصر الحروب الصليبية بمصر والشام"، وكانتا وحدة سياسية واحدة في عصر صلاح الدين الأيوبي، وقد ركز فيه على أثر الحروب الصليبية في إنتاج الشعر الحماسي الذي غلب على شعراء هذا العصر. وتناوله أيضاً الدكتور محمد كامل حسين وقد أسماه "فن الشعور بالقومية الإسلامية".

لقد أثرت الحروب الصليبية ديوان الشعر المصري بقصائد حماسية وسجل الشعراء المصريون مشاعر الفرحة العامرة بيوم حطين المجيد بحروف من نور فأوجدوا ديواناً ضخماً في الأدب العربي أطلق عليه "القدسيات".

وضم هذا الديوان قصائد رائعة كثيرة للشعراء الذين خلدوا هذا اليوم وقائده صلاح الدين الأيوبي.

(2) بين ابن سناء الملك وابن أبي تمام:

ويلتقي في هذا السياق ابن سناء المُلك بأبي تمام كما التقى صلاح الدين بالخليفة العباسي المعتصم فيتناص معه في بائيته الشهيرة.

السيف أصدق أنباء من الكتب ∴ في حده الحد بين الجد واللعب

ويخلد ابن سناء المُلك فتح صلاح الدين لحلب في قصيدة البائية ومطلعها:

بدولة الترك عزت ملة العرب ∴ وبابن أيوب ذلت شيعة الصلّب

فيلتقي في ذلك مع تخليد أبي تمام للمعتصم في فتح عمورية.

وقصيدة ابن سناء المُلك هذه قصيدة طويلة "سبعة وسبعون بيتاً" تميزت ببراعة الشاعر في توظيف البديع توظيفاً فنياً رائعاً روعة النصر العظيم الذي حققه صلاح الدين، والتحم فيه الفن المصري الأدبي البديعي مع فن أبي تمام الذي تأثر بالفن البديعي في الشعر المصري أثناء إقامته في مصر بداياته الأدبية ثم أصبح علماً عليه، فصور فلسفته الذاتية من خلاله. وتحول به إلى فن له عمقه الفكري وأثره الإنساني وقيمته الأدبية.

وتناص ابن سناء المُلك مع أبي تمام فلم يقل شأواً عنه مع تأثره

به، وذلك لأن البديع في الأدب المصري فن له جذوره الثقافية والفنية الراسخة في وجدان وعقول المصريين.

فالبديع نتاج ثقافة متنوعة. وقد كان البديع في منظور النقد المصري تعبيراً عن الاتصال الوثيق بجماليات التعبير الأدبي. كما كان معياراً من أهم معايير النقد الأدبي والحكم على براعة الأديب.

فأبن سناء المُلك قد جسّد هذا النبض الإنساني والفني في قصيدته البائية في مدح صلاح الدين والتهنئة بفتح حلب.

يقول في هذه القصيدة:

وفي زمان ابن أيوب غدت حلب ∴ من أرض مصر وعادت مصر من حلب

ولابن أيوب دانت كل مملكة ∴ بالصفح والصلح أو بالحَرْب والحَرَب

مظفر النصر منعوت بهمته ∴ إلى العزائم مدلول على الغلب

والدهر بالقدر المحتوم يخدمه ∴ والأرض بالخلق والأفلاك بالشهب[1]

هذه القوة العارمة التي تجسدها هذه الأبيات وغيرها من هذه القصيدة هي تجسيد للفرحة العارمة بظفر النصر الذي قدمه البديع في كثافة تصويرية مساوقة للفرحة الطاغية به.

وليس البديع في هذه القصيدة شكلاً لفظياً وإنما هو سداة الشعر ولحمته. بناء فاعل في نسيج القصيدة المنطلقة انطلاقاً هادرا هدير جيش صلاح الدين المظفر.

أتى إليها يقود البحر ملتطما والبيض كالموج والبيضات كالحبب

تبدو الفوارس منه في سوابغها بين النقيضين من ماء ومن لهب

(1) ديوان ابن سناء المُلك ج1 تحقيق محمد إبراهيم نصر، الهيئة العامة لقصور الثقافة.

جمالهم من مغازيهم إذا قفلوا حمّالة السبي لا حمالة الحطب

فطاف منها بركن لا يقبله إلا أسنة أطراف القنا السَّلب[1]

فالمفارقة التي يقدمها الطباق بين الماء واللهب تجسد إعجاز هذا الجيش الذي استطاع أن يجمع بين هذين النقيضين ببسالته وحسن استعداده وإعداده لعدة الحرب.

والتناص بالقرآن الكريم "حمالة السبي، لا حمالة الحطب "يطرد اطراداً يشكل ظاهرة أخرى في الأدب المصري.

لقد نُصر صلاح الدين الأيوبي بالرعب وفي هذا استدعاء للحديث النبوي الشريف في قول ابن سناء:

إلى بلاد أجابت قبلما دعيت للخاطبين ولولا الخوف لم تجب

لو لم تجب يوسفا من قبل دعوته لعاد عامرها كالجوسق الخرب

خافت وخاف وفرّ المالكون لها فالمدن في رَهَب والقوم في هرب[2]

والجناس في "المدن في رهب والقوم في هرب" دال على نجاح الشاعر في توظيف البديع بدلالته الأسلوبية والموسيقية الرائعة.

لقد كان ابن سناء الملك تحت تأثير تيار التأنق اللفظي الذي كان يسيطر على الأدب في ذلك العصر، يعجب على الأخص بالشعراء الذين كانوا يهتمون بالصنعة وضروب البيان والبديع ولهذا كان يفضل من بين القدماء أبا تمام والبحتري[3].

---

(1) ديوان ابن سناء المُلك ج1 ص 2.
(2) الديوان ص3.
(3) دار الطراز تأليف ابن سناء المُلك " المقدمة ص1. "، وراجع فيما سبق تقديم الدكتور/ عوض علي الغباري لديوان ابن سناء الملك0

(3) أهم الأغراض الشعرية عند ابن سناء الملك:

ـ المـــــــــــدح:

يصدر المدح في الكثير من القصائد التي مدح بها ابن سناء الملك صلاح الدين الأيوبي عن حب خالص.

فالمدح في شعر ابن سناء المُلك يسلمنا إلى قضية من أهم قضايا شعره الذي دار أكثر من نصفه حول المدح. فمقدمة قصائد المدح يمتزج فيها الغزل والخمر والوصف وغيرها. وغزل الشعراء العرب في بدايات القصائد المدحية أثر من الآثار النفسية الرائعة التي تجعل الدخول إلى المدح بعد الغزل فناله خصوصيته الأدبية واشتهر بذلك من الشعراء المصريين ابن نباته في حسن تخلصه. وفُتن به ابن حجة في كتبه المتعددة.

وجاء على هذه الشاكلة قول ابن سناء الملك من قصيدة في مدح القاضي الفاضل، وتهنئته بفتح صلاح الدين لعسقلان. يقول متغزلا في مطلعها:

باتت مُعانقتي ولكن في الكَرى ... أترى درى ذاك الرقيب بما جرى

ونعم درى لمّا رأى في بردتي ... ردعا وشمّ من الثياب العنبرا

طيف تخطى الهول حتى يشترى ... بيت الحشا فقد اجترا وقد اشترى[1]

وتمضي القصيدة بهذا الغزل الوجداني الرفيق العذب الذي يدور في غزل الشعراء المصريين مجسداً لعذوبة ماء النيل. فلا ترى هذه المقدمة الغزلية إلا تجسيداً لهذا التداخل بين الغزل والمدح.

وإذا كان المدح أكبر موضوعات ديوان ابن سناء المُلك فإن هذا

(1) راجع دار الطراز تأليف ابن سناء المُلك " المقدمة " ط ".

يثير جدلاً نقدياً حول أصالة شعره، ومدى قرب هذا الشعر من ذات مبدعه. فقد رأى جانب كبير من النقاد المعاصرين أن المدح في الشعر العربي وسيلة للتصنع الفني من أجل التكسب واستخدام الفن لإرضاء الممدوح على حساب الصدق الفني. ويمثل هذا الموقف نقد عبد العزيز الأهواني لشعر ابن سناء المُلك في كتابه: "ابن سناء الملك ومشكلة العقم والابتكار في الشعر" وبالنظر إلى ما قدمناه من مدح ابن سناء المُلك لصلاح الدين وارتباط الشعر المصري ارتباطاً وجدانياً عميقاً بأحداث الحروب الصليبية نجد خلاف رأي الأهواني الذي ذهب إلى أن ابن سناء المُلك ومعاصريه قد أخطأوا مفهوم الشعر الذي يراه بعض النقاد المعاصرين تعبيراً ذاتياً من الشاعر وتنفيساً عن عواطفه بالتعبير عنها مكتفياً بما يجده من راحة في التعبير، فيكون الشعر بذلك غاية في نفسه، بينما يراه البعض الآخر وسيلة لتحقيق وظيفة اجتماعية يقصد إليها الشاعر قصداً.

فلو أخذنا صورة صلاح الدين الأيوبي في هذا الشعر لوجدناها رمزاً للبطولة الإسلامية بحيث لا يمكن اتهام الشاعر الذي مدح صلاح الدين من خلالها بالعقم والانحراف عن الجانب العاطفي. فهذا الشعر في مدحه خاصة، وفي الحروب الصليبية عامة.

وفي شعر ابن سناء المُلك- كما عرضنا لصور منه- متفق تماماً مع الجانب الإيجابي لمفهوم الشعر كما عرضه الأهواني ولكنه نفاه- للأسف- عن هؤلاء الشعراء.

أما فيما يتصل بابن سناء المُلك فقد خص بمدحه صلاح الدين وأبناءه على المستوى الرسمي. وخص به أباه والقاضي الفاضل على المستوى الشخصي، وقد دار أغلب مدحه في هذه الدوار الثلاث وهي

قريبة من نفسه لذلك جسدها في فنه تجسيداً حياً نابضاً بالمشاعر والأحاسيس ولم ينفصل بها عن ذاته ولا عن مجتمعه[1].

فالمدح: فضلاً عن غيره من أغراض الشعر ليس منفصلاً عن حياة العصر وحياة الشاعر. والرجوع إلى مثل الدراسة الصافية التي قدمها الدكتور محمد زغلول سلام في كتابه " الأدب في العصر الأيوبي " تأكيداً لهذا.

الغـــــــزل:

أما الموضوع الثاني الذي شغل ديوان ابن سناء المُلك وجاء تالياً للمدح في حجمه فهو الغزل.

إذ إنه أكبر موضوع في هذا الديوان بعد المدح. فهذان الموضوعان قد شغلا أغلب ديوانه باستثناء قصائد قليلة في الرثاء والهجاء والفخر والحكمة والوصف والزهد والاعتذار والشكوى.

وقد تميز غزل ابن سناء المُلك بالرقة التي طبعت الغزل في الشعر المصري كما تمثل في شعر ابن نباته المصري، والبهاء زهير وابن مطروح وابن النبيه المصري. وغيرهم من هؤلاء الشعراء الذين تجلت في معانيهم وصورهم الشعرية الغزلية معاني الرقة والعذوبة التي جعلت أشعارهم الغزلية وقد تداخلت مع صور الحب الإلهي الصوفي. أشبه بمنظومة عاطفية رائعة سَامت في كثير من جوانبها عن شهوات الحس والغرائز. وقد قدمت مصر الشاعر ابن الفارض الذي مزج شعره الغزلي بين المعاني البشرية والمعاني الإلهية لمحبوبته التي صورها تصويراً مادياً بشرياً رمزاً للذات الإلهية حيث زالت الحدود بينهما.

وقد اتضح هذا الغزل الرقيق في قول ابن سناء المُلك:

---

(1) راجع تقديم دكتور عوض علي الغباري للديوان0

أواصل اللمّ من فرْع إلى قدم ... واصل الضم من صدر إلى كفل
وبات يسمعني من لفظ منطقه ... أرق من كلمى فيه ومن غزلي
وددت أعضائي أسماعا لتسمعه ... ولو تحملن فيه وطأة العذل
ودمعة الدّل تجريها على جسدي ... فهل رأيت سقوط الطل في الطِّلل
ونلت ما نلت مما لا أهم به ... ولا ترقت إليه همة الأمل
ومرّ والليل قد غارت كواكبه ... لمّا نوى الصبح تطفيلا على طفل[1]

والقصائد الغزلية التي جاءت في الديوان تبين اتجاهه الذي يعكس فيه عمق مشاعره العاطفية وروعة صوره الشعرية والحق أن هذا اللون من الغزل انعكاس للروح المصرية التي تجعل الغزل المكشوف عنواناً للظرف والفكاهة المثيرة دون أن يعني ذلك قصداً منهم للخروج عن الفضيلة والدين.

وقد تطرق ابن سناء المُلك في ديوانه إلى الكثير من الأغراض الشعرية الأخرى غير المدح والغزل، فجاءت له بعض القصائد في الهجاء والرثاء والاعتذار والشكوى، والفخر والخمريات والإخوانيات. وسوف نسوق بعض القصائد كنماذج لتلك الأغراض.

نماذج من شعره:

(1) الديوان ص433 : 434.

المدح والتهنئة:

قال يمدح صلاح الدين ويهنئه بفتح حلب:

في 27 من صفر سنة 579هـ تم للملك الناصر صلاح الدين فتح حلب بعد أن عجز عماد الدين زنكي واليها عن الدفاع عنها، فهنأه الشعراءُ بهذا الفتح، وفي هذا قال ابن سناء الملك قصيدته هذه:

بدولـة التـركِ عـزَّت ملـةُ العـربِ ... وبـابن أَيـوب ذلـت شـيعةُ الصُـلُب[1]

وفي زمان ابن أَيوبٍ غَدتْ حلبٌ ... من أرض مصرَ وعادت مصرُ من حلبِ

ولابـن أيـوبَ دانـت كـلُّ مملكـةٍ ... بالصَّفْح والصُلحِ أو بـالْحربِ والحَرَبِ[2]

مظفـرُ النصـرِ، منعـوتٌ بهمتـه ... إلـى العـزائِم، مـدلول علـى الغلَـبِ

والـدَّهرُ بالقَـدرِ المحتـومِ يَخْدُمـه ... والأَرض بـالخلقِ، والأَفـلاكُ بالشُـهب

ويَجتلـي الخلـقُ مـن راياتـهِ أَبـدًا ... مبيضـةَ النصـرِ مـن مصـفرَّة العـذَب[3]

إنَّ العواصـمَ كانـت أيّ عاصـمةٍ ... معصـومةً بتعاليهـا عـن الرُتَـبِ

مـا دارَ قـطُّ عليهـا جـورُ دائـرةٍ ... كـلاَّ، وَلاَ وَاصَـلَتْها نوبـةُ النـوبِ

لـو رامَهـا الـدَّهرُ لـم يظفَرْ بِبُغْيَتِـه ... ولَـوْ رماهَـا بِقـوسِ الأُفْـقِ لـم يُصـب

ولـوْ أَتَـى أَسـدُ الأَبْـراجِ مُنْتَصـرًا ... خَـارتْ قوائمـهُ عنهـا ولـم يَثِـبِ

جِليسـةُ الـنَّجْمِ فـي أَعْلَـى منازلـه ... وظَالمـا غَـابَ عنْهـا وهْـي لَـمْ تَغِـبِ

تَلقِـي إذا عطشـت والبـرقُ أرشـيةٌ ... كواكـبَ الـدُلو فـي بئـرٍ مـن السُـحب[4]

كُلُّ القلاعِ ترومُ السُحبَ في صَعَدٍ ... إلاَّ العواصـمَ تَبْغِـي السُـحبَ فـي صَـبَب

---

(1) يقصد الصليبيين0
(2) الحرب : النهب والسلب0
(3) الاعتذاب: أن تسبل العمامة عذبة من خلفها، وربما قصد الشاعر أن جنود صلاح الدين كانوا يتركون تلك العذبات الصفراء خلفهم.
(4) أرشية : جمع رشاء وهو حبل الدلو0

حتَّى أَتَى مَنْ مَنالُ النَّجْمِ مَطْلَبُه ... يا طالبَ النَّجم قَدْ أَوْغَلْتَ في الطَّلَب

مَنْ لو أَبَى الفلكُ الدَّوارُ طاعتَه ... لصيَّرَ الرَّأْسَ منه موضعَ الذَّنَب

أَتَى إليها يقودُ البحرَ مُلتَطِمًا ... والبِيضُ كالمَوْجِ والبَيْضَاتُ كالْحبَبِ[1]

تبدو الفوارسُ منه في سَوابِغِها ... بين النقيضين من ماءٍ ومن لهبِ

مستَلْئِمين ولولا أَنَّهم حَفِظُوا ... عوائدَ الحرْبِ لاستَغْنَوا عن اليَلَبِ[2]

جَمَالُهم من مَغازِيهم إذا قَفَلوا ... حَمَّالةُ السَّبْيِ، لا حمَّالةُ الحَطَبِ[3]

فطافَ منها بركنٍ لا يقبِّلُهُ ... إلا أَسنَّةُ أَطرافِ القَنا السُّلُبِ[4]

وحلَّ من حولِها الأَقْصى على فلكٍ ... ودَارَ من بُرجِها الأَعلى على قُطُبِ

وَمَانَعَتْه كمعشوقٍ تمنُّعه ... أَحلى من الشَّهدِ أَو أَحْلَى من الضَّرَبِ[5]

فمرَّ عنها بلا غيظٍ ولا خَنَقٍ ... وسار عنها بلا حِقْدٍ ولا غَضَب

تطوى البلادَ وأَهليها كتائبه ... طيًّا كما طَوتِ الكتَّابُ للكُتُبِ

وافي الفراتَ فألفى فيه ذا لَجَبٍ ... يظلُّ يهزأُ مِنْ ثيارِه اللَّجِبِ[6](*)

وقال يهنئُ الملك الأَشرف بن الفاضل بولد رزقه :

أَيُّ نَجْلٍ بل أَيُّ نَجْمٍ سَعِيدٍ ∴ أَسعد اللهُ كلَّ من يرتَجِيه

فهو المشْتَرى وإن بذل الأُف ∴ قُ لنا مُشتَرِيه ما يَشْتريه[1]

لمِ أُهَنِّئْ به سوَايَ فإني ∴ أنا أَولَى بأَن أُهَنَّأَ فِيه

---

(1) البيض : السيوف، والبيضات : جمع بيضة وهي الخوذة0

(2) مستلئمين: مستسلمين ولو، واليلب : الدروع اليمنية من الجلود0

(3) إشارة إلى قوله تعالى : "وامرأته حمالة الحطب " [تبت يدا أبي لهب] 4.

(4) ص: قطاف منها بركب. ويشير في البيت إلى الطواف حول الكعبة واستلام الحجر الأسود وتقبيله.

(5) ص : أشهى من الشهد. والضرب: العسل الأبيض.

(6) الجب: محركة الجلبة والصياح، واضطراب موج البحر وجيش لجي بكسر الجيم ذو لجب بفتحها أي ذو ضجة وجلب.

(*) راجع الديوان ص 1 : 2.

(1) يقصد أن هذا النجل السعيد هو النجم الحقيقي حتى أن الأفق لو بذل نجمه المسمى بالمشترى ليكون ثمنا له ما استطاع أن يشتريه.

وهَنانِي بِطُولِ عُمري لأَنـيّ ∴ كنـتُ هَنَّـأت جـدَّه بأَبيـه[*]

الغـــــــزل:

وقال في الغزل:

أيا شمسُ شمسِي منكِ أَشرَقُ بهـةً ∴ وإن حُجِّبت بالعُجْب في سحُب الحُجْب[1]

ويا شـهدُ أحلى منكَ عندي مَذاقَةً ∴ شـرابُ رُضـاب فـي مُقبّلِهـا العَـذبِ

ولِمِسْكِ تكْبٌ عَنْ مُجـارَاةِ نَشْـرِها ∴ وقُـلْ مثْـلَ هـذا القـولِ للمنْـدَلِ الرَّطـب

فـأَقطعُ من حدِّ الحسَام إذا مَضى ∴ حُسـامٌ لهـا بـين المَحـاجرِ والهـدْب

وأَخْطَبُ من قسّ وأَفْصَحُ منطِقًا ∴ سكوتٌ لـذاك الحِجْـلِ أَو ذَلِـكَ القَلْـبِ[2]

وأَكْتَبُ من خَطِّ الوزير ابنِ مُقْلَـةٍ ∴ خطـوطٌ لهاتيـكَ الـذوائبِ فـي التـربِ[3]

تطلـعُ مـن بـدر السماءِ إلـى أَخٍ ∴ وتَنْظـر مِـنْ رِيـمِ الفَـلاة إلـى تِـرْبِ

أَحِـنُّ لِشـعبٍ نـازلٍ فيـه قومُهـا ∴ ومـا قومُها قَـوْمِي ومـا شِـعْبُها شِـعْبي[4]

ويُلحـون نَفْسِـي فـي هَواهـا وإنَّهـا ∴ شـقيقَةُ تِلْـكَ الـنفسِ ريحانـةُ القلـبِ

وقـد نَقلَتْنِـي عَـن طِبـاعٍ كثيـرةٍ ∴ وقـد قَلَبَـت قَلْبـي وقـد خَلَبَـتْ خَلْبـي

وكم حُمَّ منها من حَمامٍ لِذِي الهوى ∴ وكم من عَذابٍ صُبَّ مِنْها عَلى صَبِّ[5]

تُغِيـرُ فَتسْـبى باللَّحَـاظِ عُقُولَنـا ∴ وكـم مِـنْ شـجَاعٍ قـد أَغـارَ ولـم يَسـب[*]

وقال يتغزَّل في شاب هرب من الوالي

يـا مُعْرِضـا قـد آنَ أَنْ تُقـبلا ∴ وغائِبـاً قـد حـان أَن تَقْفـلا

أَعرَضتَ إذ أَعرضْتَ لا عن رِضًى ∴ وغبتَ لما غبتَ لا عَنِ قَلَى

(*) راجع الديوان ص36.
(2) أبهج طلعة : وإن غيبت.. سحب العجب.
(3) الحجل: الخلخال. والقلب: السوار، والمعنى: أن همسات خلخالها، وموسيقاه، وموسيقى سوارها أوقع في النفس من خطب قس وفصاحته.
(4) أكتب من خط الوزير. ابن مقلة: هو الوزير أبو علي محمد بن علي بن الحسن بن مقلة إمام الخطاطين استوزره المقتدر والراضي توفى سنة 328هـ.
(5) ولا شعبها شعبي.
(1) صب منها على الصب.
(*) راجع الديوان ص 361.

لـــيس بعـــارٍ أن تـــرى هاربـــاً ∴ فإنهـــا عـــادَةُ رِيـــمِ الفَـــلاَ
ولا بعيـــبٍ أن تـــرى غائبـــا ∴ فعـــادةُ الأقمـــار أنْ تـــأفُلا
وأن تـــرى مـــن فَـــرَقٍ شـــاحبًا ∴ فالسيفُ قد يصدأُ بَعْدَ الجِلاَ
كأنَّمـــا الـــوالي وأعوانـــه ∴ غـاروا علـى حسْـنِكَ أن يُبْـذلاَ
قـد جـلَّ الغصـنُ أن يُجْتَنَـى ∴ منـك وذاكَ البـدْرُ أن يُجْتَلـى
كـم بحثـوا عنـه ولـم يَعلَمـوا ∴ بـأنَّ فـي قلبـي لـه منـزلا[1]
كَتمتـــه عـــنهم فَقُولـــوا لَـــهُ ∴ مـــا بالـــهُ دلَّ علـــى المـــلا[2]
إن أنكـرُوا سـقْمي مِـن بَعـده ∴ فصـفرةُ اللـونِ دليـلٌ علـى[3]
يـــا ليتـــه أَذْنـــب حتـــى أَرِى ∴ عُذْرًا لقلبي بعد ما أَنْ سَلا[4]
أَوليتـه كـان رخيصًـا علـى الـ ∴ قلـبِ فَنَنْسَـاهُ إذا مـا غَـلا
وُدِّي وَعَيْشِـي بعـد تودِيعـه ∴ ذلـك مـا حـالَ وذا مـا حَـلاَ
لـم يكتحـل طرفِـي بغمـضٍ وقـد ∴ فارَقَ ذَاكَ الرِّشَأَ الأكحلا[5] (*)

الهجـــاء:

قال في وصف هجائه:

قولوا لمن قال إنَّ هجري ∴ يفـوق مـدحي بـلا امتـراء
صـدقت يـا مانعًـا ثـوابي ∴ منـه ويـا قطعًـا رجـائي
كآبةُ الكِذْب فـي مَدِيحي ∴ ورَوْنَق الصِّدْقِ فِي هَجَائِي

وقال في نقد الدنيا وذمّ الزمان

أَتخون يا سَكَنى؟ فقال: نعم ∴ لي في الخيانة نِسْبةٌ علياءُ[1]

---

(1) بأن في القلب.
(2) بج: كتمته عنه: ما دله دل.
(3) فيع اكتفاء فقد اكتفى بالجار عن ذكر المجرور، وتقديره (على سقمي)0
(4) بعد بعده أن سلا.
(5) لم تكتحل بالغيض ما فارقت0. عيني ذاك.0الخ0
(*) راجع الديوان ص 435.
(1) علياً : بغير همز.

لِـمَ لا أَخـون ولـم أَفِ أَبـدًا ∴ وأَبِي الزَمانُ وأُمي الدُّنْياءُ[2](*)

وقال يهجو:

رأيــت الرَّضــيَّ ومــا نالــه ∴ وما سَلَبَ الدَّهرُ من بهجته[3]
عــدا خارجيــا علــى قَوْمِــه ∴ فمـا وُفِّـق العِلْـقُ فـي خَرْجَتـه
وقَد جَارَ بغْيًا على صَحْبِه ∴ فغرَّقــه البغْــي فــي لُجَّتــه
فكــان يقــود علــى نفســه ∴ فصــار يقــودُ علــى زَوْجَتــهِ
وكَيـفَ يغـار عَلـى عُرسـه ∴ فتًـى لا يَغَـار علـى مُهجتـه
ولا بـأْسَ بـالتَّيس أَن يستعي ∴ ر قُرونًا على الرأْس من نَعْجَتِه
فأَشــبَعَنا الله مِــنْ هَجْــوِه ∴ وجوَّعنــا الله مــن عَجَّتــه[4]

وقال أيضاً وقد اضطر إلى مصالحة إنسان بعد مخاصمة ومقاطعة:

أكلـتُ طعامـا طالمـا قـد عرضـتُه ∴ وأَظهـرتُ قربًـا للـذي قـد رفضـتُهْ[1]
وصِرْتُ أَغُضُّ الطرفَ عنه ضرورةً ∴ ويامَا بقلبي منـه لما غَضَضْتُه[2]
وما كان من طبعي التَّغَاضي وإنما ∴ رهنـتُ إبـائي فيـه حتـى اقْتَرَضْـتُه
أُقبِـل كَفـا ليتنـي لـو قَطَعتُهـا ∴ وأَلِـثُمُ ثَغْـرًا ليتنـي لـو فَضَضْـتُه[3]
ومـا لَـي إلا مَبْسَـمٌ قـد قرعتـه ∴ عليـه وإلا أَنمـلٌ قـد غَضَضْـتُه(*)

(د) الرثـــاء:

وقال يـرثـي أمه:

---

(2) : ولا أفي.
(*) راجع الديوان ص472.
(3) : رأيت فلانا0: وما كشف الدهر.
(4) العجة : كلمة مولدة وهي للطعام من البيض.
(1) : أنلت عطاه بعدما. : وأظهرت ثوبا.
(2) : عند مروره بدلا من : عنه ضرورة.
(3) : أقبل شفاها.
(*) راجع الديوان ص473.

صحَّ من دهرِنا وفاةُ الحَياء ∴ فليَطُلْ منكما بُكَاءُ الوَفاء

ولْيَبن ما عقدتُماه من الصبـ ∴ ـرِ بأن تَحْلُلا وِكَاءَ البُكَاء[1]

وأَهِيَنا الدُّمُوعَ سَكْباً وهَطْلاً ∴ وهَبا أنهن مِثْلُ الهَباء[2]

وامْنحا النوْمَ كلَّ صبٍّ ينادي ∴ من يُعيرُ الكَرَى ولَوْ بالكِرَاءِ[3]

ليست العينُ منكما لي بِعَيْنٍ ∴ أَو تعاني حَمْلاً لبَعْضِ عنَائي

قد رماني الزَّمانُ منه بخطبٍ ∴ أُقْحِمَتْ عنه أَلْسُنُ الخُطَبَاءِ[4]

ودهاني بما أُعزِّي فيه ∴ عن ثباتِي له وحسْنِ عَزائي[5]

صار منه يرى الغِنَاءَ نُواحاً ∴ مسْمَعِي والنواحَ مِثْلَ الغِنَاءِ

وأَزَانِي حَالِي الأَنِيقةَ قد قلّ ∴ بعينيَّ ما بها من بهاءِ

وقضى لي بطولِ عُمْري نَحيبي ∴ مذ قَضى نَحْبَه لديَّ رجائي[6]

وأَناخت ركائِبُ الهمِّ في قَلْ ∴ بي ولم تِحْتِشِمْ لطول الثَّوائي[7]

ثم آلت أَلاَّ تُفارِقَ رَبْعِي ∴ وفِنائي إلا عقِيبَ فَنائِي

صادَفَتْ منهلا يَصُبُّ من العين ∴ ونارًا تشبُّ في الأَحْشَاءِ

وأَلُوفاً لو فارقتْه لأَرْوَي ∴ جفْنُه الأَرضَ من سماءِ الدِّماءِ[8]

وإذا كان يشتكي فُرْقَةَ البَلْـ ∴ ـوى فماذا يقولُ في النَّعْمَاءِ

أَيُّ عذرٍ لدهرنا إذْ دَهَاني ∴ بِمَصَابٍ أَلَمَّ فِيهِ دَهَائِي[9]

---

(1) : من الحفظ، الوكاء: رباط القربة ونحوها وكل ما شد رأسه من وعاء ونحوه والجمع أوكية.

(2) وهبالي الدموع0

(3) : وامنحا اليوم.

(4) بح : مص : أقحمت فيه.

(5) عزيائي له وحسب عزائي: بما أعزاه.

(6) بطول غمى فحسبي0. قد تقضي عنه لدى رجائي0: قد قضى.

(7) : الثراء. وهو لا يناسب المعنى.

(8) جاء على هامش النسخة (ب، ط) تعليق هذا نصه : هذا المعنى مأخوذ من قول أبي الطيب المتنبي: خلقت ألوفاً لو رجعت إلى الصبا ... لفارقت شيبي موجع القلب باكيا. ومثل هذا في كلام السعيد كثير، فلقد كان رحمه الله لهجاً بشعر المتنبي لا يكاد يخلو منه ساعة أ.هـ

(1) : بمصاب لم يفن فيه دهائي: أي لم تنفع فيه حيلتي.

وأرانـي الـبلاءِ قـد حـلَّ منـه ∴ بـالّتي لـم تَـزَلْ تُزيـلُ بلائـي

والتي بعضُ جُودِها لِي وُجُودِي ∴ والتـي مـن حِبائِهـا حَوْبَـائِي[1]

قَدْ تَيقَّنْتُ مذُ غَدَتْ لِـيَ أصلاً ∴ أَنَّنـي مُثْمِـرٌ فُنُـونَ العـلاءِ

يعذرُ الناس من تكونُ له أُما ∴ إذا مـا ازْدَهَـى علـى الآبـاءِ

ويَرَوْنَ الصوابَ أَن تنسب الأَو ∴ لادُ لا للرجـال بـلْ للنسـاءِ

هـي مـن قـدّمت لهَـا حسناتٍ ∴ تقتضـي غَرْسَـها رجـاءَ الحِبـاءِ

أَتعبتْ كاتِبَ اليمينِ فكم أَغْـ ∴ فَـل إثْبَاتَهـا مـن الإعْيَـاءِ

تُنْفِقُ العُمْر في اكتسابِ ثوابٍ ∴ لمـآبٍ لا لاقْتنَـاءِ ثنـاءِ[2]

وترى مشْتَرى العلاءِ رخيصًا ∴ ولَـو إنَّ العـلا بـأَغلى الغَـلاءِ

ولقد خلَّفت أَحاديثَ تُغْنى الـ ∴ تـأَنُّقَ عـن نَشْـرِ رَوضـةٍ غنـاءِ

خَفَـرٌ مـع ديانـةٍ وذكـاءٌ ∴ فـي زكـاةٍ وعفـةٌ مَـعْ سـخاءِ[3]

كـم تمنـت قـرْبَ المنيـةِ دَهْـرًا ∴ رغبـة فـي الخبـاءِ والاختبـاء[4]

وأرادت حجبَ الثَّرى ليتَ شِعْرِي ∴ مَـنْ دَعَـا للثـرى بهـذَا الثـرَاءِ[5] (*)

وقال يَرْثِي جارية له (*)

لـئِن كنـتِ مـن عينـي نُقِلْـتِ إلـى قلْبـي

∴ فقد صارَ أَقْصَى البُعْدِ في أَقْرَب القرْبِ

وإن كـان هـذا الصـدُّ منـكِ تَعتُّبـاً

---

(2) : والتي من حياتها إحيائي.
(3) : لا لمرأى ولا لإفشا ثناء، بق: أو افتناء.
(4) : في زكاء.
(5) ت : رغبة في الحياء والاختفاء.
(*) راجع الديوان ص491 : 492.
(*) مذكرة : في (ط) ص 62.

∴ علـيَّ فعِنْدي أَلْفُ عَتْبٍ من العُتْبِ[1]

وإنْ كنـتِ فـي شُـغْلٍ فهـلْ هُـوَ شَـاغِلٌ

∴ كشُـغْلِكِ قـدْماً بالـدَّلالِ وبالعُجْـبِ[2]

وإنْ كنـتِ غضْـبي مـن فِرَاقِـي فإنَّـهُ

∴ – ولا تَظْلِمـي – ذنـبُ المَنِيَّـة لا ذنْبـي[3]

* * *

(هـ) الاعتـــــذار:

قال وقد فارق خدمة الأَجل الفاضل بدمشق وتوجه إلى مصر وكتب إليه يعتذر من مفارقته إيَّاه(*).

تـــذكَّرتُ أيـــامَ الصَّـــبابَةِ والصِّـــبا ∴ وعيشـــا مليحـــاً بالمَليحـــةِ مُعْجِبَـــا

وثـــوبَ نعـــيمٍ لا يحـــلُّ لباســـه ∴ لـــذي ورعٍ لأَنَّـــه كـــان مـــذْهَبَا

---

(1) بج : فعندي فيه ألف عتبى.
(2) ص : هذا البيت وسابقه غير مذكورين0
(3) راجع الديوان ص495.
(*) ومناسبتها: كان ابن سناء المُلك قد زار القاضي الفاضل بدمشق سنة 583هـ فوجده مريضاً فخشي أن يجري عليه القضاء المحتوم، وهو لا يحتمل ذلك عليه فطلب منه أن يأذن له بالعودة إلى مصر محتجا بأنه قد ورده عن أبيه خبر مزعج فأذن له الفاضل عن نفس غير راضية، فلما ذهب إلى مصر ومن الله على القاضي بالشفاء، كتب إليه هذه القصيدة معتذراً عن فراقه. ومعها كتاب يعتذر فيه أيضاً، وقد كتب القاضي الفاضل، إلى أبيه القاضي الأشرف رداً على تلك القصيدة كتاباً جاء فيه " وتأملت قصيدته التي اعتذر فيها عن فراقي، وهربه مني، وتركه إياي0 أشواقي آخذة بأطواقي، وكنت كلما قرأت فصلاً أو بيتاً تحللت عقدي، فعلمت أن أقواله هي النفاثات في العقد، وأن من وجد ما فقد منه ما فقد، وما هرب إلا خوفاً من أن يقضي على بالمحتوم وهو حاضر بحضرته، فينفر ويتجرع حسرتي دون أسرتي، وهذا عذر استحى أن يقوله فقلته عنه0 إلى أن قال0 وددت لو كان البحتري حياً فتلسعه من تلك القصيدة بحية، وكانت بائيته تغض من بأوها وعجبها، وتستر من الأوراق في حجبها0 الخ وقصيدة البحتري البائية هي التي مطلعها:
أجدك ما ينفك يسري لزينبا ∴ خيال إذا آب الصباح تأوبا

مذهبةُ الخدَّيْن يحمرُ خدُّها ∴ ليُجْنَى ويجري الماءُ فيه ليَشْرِبَا
ومن خدِّها يحمَرُّ ياقوت عِقْدِها ∴ ويصفَرُّ إما خَجْلةٌ أو تَهيُّبا
أَبو ثَغْرِهَا الدُّرُّ الذي في عقودِها ∴ ولكن رأَيت الابنَ قد فضل الأَبا
تُغير فتَسْبي باللِّحاظِ عقولَنَا ∴ وكم من شجاعٍ قد أَغارَ وما سَبى
وقد أوتِيتْ فَصْلَ الخطابِ ملاحةً ∴ فأَوجَز فيها الحصرُ والرِدْفُ أَسْهَبَا
مُعذِّبتي لولاك لم يَعذُبِ الرَّدى ∴ ولا كنتُ في جناتِ عدن مُعذَّبا
ولا كان قَلْبي بالهموم مُكَحلاً ∴ ولا كَانَ طَرْفي بالدِّماءِ مخضَّبا
ولا كان جسمِي من هُزالي مُخْصِباً ∴ ولا كان خَدِّي من شُحوبيَ مُعْشِبَا[1]
وأبْصَر طَرْفي في الدُّجى أَلْفَ كَوْكبٍ ∴ فلم أَر فيهم غَيرَ وجهك كَوْكَبَا
تحيَّر دَمْعي بين جَرْيٍ ووقفةٍ ∴ فكيف تُراهُ مِثْلَ قَلبي مُذْبَذَبَا
ومذ قوَّضوا أَطْنابَهُمْ صار ناظِري ∴ خِباءً ولكن بالدموعِ مُطَنَّبَا[1]
سقى الله أَيامَ الضَّباب مدامِعي ∴ على زينبٍ لا واخَذَ الله زينبا
فذاك زمانٌ كلُّ عيشي به رِضاً ∴ وكلُّ نسيمٍ هبَّ من صَبْوتي صَبَا
وتُضمِرُ حُبيّ كلُّ ضامرةِ الحشَا ∴ وتُنْعِمُ عيشِي كلُّ ناعمةِ الصَّبا
تكاثرَ لَثْمُ الغانياتِ بعارِضي ∴ فكدتَ تراهُ بالمباسِمِ أَشْنَبَا[2]
تقبلْتُني عن قبلةٍ أَلفَ قبلةٍ ∴ وحُلِّل في شَرْعِ الهَوى ذلِك الرِّبَا
فأَتْكلَني الدَّهرُ الشبابَ وإنَّما ∴ أُطَاعِنُ من بعدِ الضَّبابِ بلا شَبَا
أَساءَت بي الأَفلاكُ غارَت نجومُها ∴ ولا نزعَتْ من مَلبِس الحُزْنِ غَيْهَبَا[3]
ويا ليت شِعْري مَنْ لمن أَشْتكِي لها ∴ أُخَاطِبُ ثَوْرًا أَمْ أُعَاتِبُ عَقْرَبا[4]
رجعتُ بها عن حَضْرَةِ العزِّ والعلاَ ∴ وحيدًا وقد كنت النَّجيَّ المُقَرَّبَى

---

(1) من هواك محصبا0. شحوبي معشبا.
(1) : قوضوا أبصارهم0
(2) : أشيبا بدلاً من (أشنبا)0
(3) ولا نزعت عن.
(4) أشتكي بها. هذا البيت لا يوجد في (بج)0

وأصبحتُ مقْصَى بعد أن كنت مُطَفى ∴ وأمسيتُ مُلقىً بعد ما كنت مُجْتَبى[1]

نأيتُ فيا شوقاهُ عن أبيضِ الجَدا ∴ وسرتُ فيا لهفاهُ عن أخضرِ الرُبَا[2]

عَنِ المالكِ الأمْلاكِ رأياً وحكمةً ∴ وفاضِلهم عَلْما وحِلْما ومَنْصِباً[3]

تجوبُ ملوكُ الأرض أقصَى بلادِها ∴ لِبابٍ تراها فيه خسأي ولُغَّبا[4] (*)

* * *

تصوير الأدب للحياة المصرية

لقد صور الشاعر الحياة عند المصريين أصدق تصوير فصور لنا أعيادهم الدينية والاجتماعية.

كأنه عاشق وافى على شرف ∴ يرعى الحبيب فإن لاح الرقيب خبا

وكذلك صور لنا جانب من جوانب لهوهم وزهدهم.

أولاً- الأعياد الوطنية والدينية:

يطالعنا الأدب العربي بسجل حافل عن أعياد مصر القومية والدينية التي كانت تحتفل بها حكومةً وشعباً في عصر ازدهارها الأدبي وهي أعياد مختلفة المصادر متعددة النزعات تجمعت من جهات بعيدة أو قريبة، فبعضها يرجع إلى العصور الفرعونية كالاحتفال بوفاء النيل، وبعضها عرفته مصر من خلال احتكاكها بغيرها من الشعوب كعيد النيروز الذي أخذته عن الفرس وأمدتها المسيحية بأعيادها كعيد رأس السنة وعيد الغطاس، كما أمدها الإسلام بعيدي الفطر والأضحى،

---

(1) : بعد أن كنت مجتبى.
(2) فيا لهفي على.
(3) : غدا مالك الأملاك.
(4) خسري : حيري بدلاً من (خسأي)0
(*) راجع الديوان ص538 : 539.